

آلامُ صوفي

رواية

ترجمها عن الفرنسية

محمد هنيد

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

الكونتيسة دو سيغُور



آلامُ صوفي

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

محمّد هنيد

مراجعة

كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PQ2427.S5 A6912 2013
Ségur, Comtesse de, 1799-1874.
[Les malheurs de Sophie]
آلامُ صوفي : رواية / تأليف الكونتيسة دو سيغُور ؛ ترجمها عن الفرنسية محمد هنيد؛ مراجعة كاظم جهاد.– أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
241 ص. ؛ 17.8×12.5 سم.
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
ترجمة كتاب : Les malheurs de Sophie.
تدمك: 978-9948-17-141-6
أ–هنيد، محمد. ب–جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لرواية الكونتيسة دو سيغُور
آلامُ صَوفي
Comtesse de Ségur, *Les malheurs de Sophie*

رسم الغلاف والرّسوم الدّاخليّة للرّسام الفرنسيّ هوراس كاستَلي
Illustrations par Horace Castelli (1825-1889)



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

آلامُ صوفي

المحتوى

هذه السّلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري - كاترين دَونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات، بل صار

يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى

منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

هذا الكتاب

إنّ آلام صوفي، للكونتيسة دو سيغُور، الصّادرة سنةَ 1859، هي رواية مَطلَع الصِّبا بامتياز. بطلتُها صوفي، الطِّفلةُ المُغامِرةُ بِنتُ الأربعَةِ أعوام، عُمرِ الإدراك الحسّيِّ الحركيِّ، وزَمانِ التقلُّب في المُحيطِ الأُسَريّ بحثاً عن خصوصيّةٍ للذّات. لا تنفكّ هذه الشّخصيّةُ الخارِجةُ عن السِّرْب، على امتداد اثنين وعشرين فَصلاً، عن القيام بأفعال جَسورة، ممنوعة مِن قبَل الكهول؛ فلا ترضخ لحكم عقوبة جرّاءَ جسارةٍ سابقة إلاّ كيْ تتهيّأ لاقتحام مَعمَعانِ جسارةٍ لاحقة، تَهجِس مِراراً بكونها ستُفضي بها إلى الزّجر والتّقريع، ولكنّها لا تتخلّى عن اقترافها. كأنّ كاتبتها تُوجِّه بإبداعها الرّوائيّ إلى حاجة الطِّفل إلى خَرقِ قائمة الممنوعات الموضوعة مِن قِبَل الكبار، حتّى يقدِر على بناء شخصيّته وتثبيت الثّوابت فيها. إنّ صوفي المُشاغبةَ نموذجُ الطِّفل التّائق إلى التّعرّف على المحيط مِنْ حوله، حتّى يقدِرَ على تحديد الموقع الملائم له داخلَه.

آلامُ صوفي هي، إلى ذلك، رواية تَربَوِيّة بامتياز. ألَمْ تُقدِّمها الكاتبة هديّةً لحفيدتها إليزابيت فرينّو، مُرشِدةً إيّاها منذ استهلال الرّواية إلى التخلُّق بأخلاق الصّغيرة صوفي في تحوُّلاتها من

الغضب إلى الرِّقّة، ومن الجشع إلى القناعة، ومن الكذب إلى الصِّدق، ومن السّرقة إلى الأمانة، ومن الشّرِّ إلى الخَير؟ «افعَلوا مِثلَها يا أَعزّائيَ الصِّغارَ»: تلكَ كانت رِسالة الكاتبة إليكَ أيُّها القارئُ. ليس عبثُ صوفي وجسارتُها على بعض المَحظوراتِ، إذن، خلخلةً للثّوابت وتهديماً لِصَرح قيَم الكهول الفاضلة، بقدر ما هما اختبارٌ طفوليٌّ فَذٌّ لمدى صلابة هذه الأسس الأخلاقيّة، ومدى تعزيزها لكيان الطّفل. أَلَمْ تستخلص صوفي العِبْرَةَ مِنَ الكثير من سقْطاتها، وعادت في ختام كلِّ فصلٍ أَكثَرَ اقتناعاً بقيمِ الصِّدق والوفاء والقناعة والرِّفق والأمانة، وهي جواهرُ مِنْ مكارم الأخلاق والقِيمِ الرَّفيعة، أَدرَكَتها صوفي، لا بل تَعلَّمتها في خِضمِّ لَعِبها الطائشِ ومُغامراتها الجريئة؟ ألمْ يَقلْ لنا الأقدمون: «علِّموا الأطفالَ وهُم يَلعَبون»؟

وآلامُ صوفي هي، أخيراً، رواية فنيّة بامتياز. بناؤها القصصيّ قائمٌ على وحدة «الفصل»، تتتالى الفصول الاثنان والعشرون كالحلقات في السِّلسلة، وفي كلّ حلقةٍ مُغامرةٌ من عبثِ الطّفولة وشغَبها، تُعلِن بها صوفي عن حضورها الخارِج على المألوف وسط مُحيطها، من خلال خَرقِها لِوَضعِ بِدايةٍ مُتوازنٍ، وانخراطها في أطوارِ الحدَثِ المُغامِرِ، المُشاغبِ، والمُصادِمِ لسُنَن الكهول وتعاليم العيش المُشتَرَكِ داخلَ الأسرةِ، إلى أنْ تُفضِي بنا السَّيرورة

القصصيّة إلى وضعِ الخِتام وانكِشافِ أمرِ صوفي وتعرُّضها للعِقاب. هذا النّظامُ القصصيُّ المَحبوكُ هو المَظهر الجماليّ للسّرد الّذي احتضن اثنتيْن وعشرين مُغامرةً مِنْ مُغامراتِ صوفي، كلّ مغامرة مِنها ألمٌ مِنْ آلام صوفي في مسيرة طفولتها نحو المعرفة بالنّاس والحياة.

آلامُ صوفي رِوايةٌ خفيفةُ الظِّلّ، خِفّةَ رُوحِ الطِّفلة صوفي، بَطلَتِها؛ وهي تُغري بالقِراءةِ المُستَرسِلَة، تتبُّعاً للمُغامرات الطّفوليّة البريئة، المُشوِّقة؛ وتمعُّناً في العِبَر المُستَفادة، والقيم النّبيلة المُستَهدَفة. إنّها مِنَ القصص العالميِّ الرَّفيع، الجامِع في ثنايا إبداعِهِ بَيْن الوظيفة التّعليميّة والوظيفة التّرفيهيّة، أو المُزاوِج في داخلِه بَيْن الإفادةِ والإمتاع.

المُترجم

محمّد هنيد



إلى حَفيدَتي

إليزابيت فرينّو

بُنيَّتي العَزيزةَ، كثيراً ما تقُولينَ لي: «آه! يا جدَّتي، كم أُحبّكِ! ما أَطيبَ قَلبكِ!» ولكنّ جدَّتكِ لَم تكُن علَى الدَّوام طيِّبةً. كثيرون هم الأطفال الّذين كانوا شرّيرين مِثلَها ثمّ أَصلَحوا أَنفسَهم بِأَنفسِهم مِثلَها.

إليكِ هذه الحكايات الواقعيّة عَنْ طِفلةٍ صغيرةٍ عرفَتها جدّتُكِ كثيراً في طفولَتها؛ كانت غَضُوباً فصارَت رقيقةً؛ وكانَت جشِعةً فصارَت قَنُوعاً؛ كانَت كَذوباً فصارَت صادِقةً؛ وكانَت لِصّةً فصارَت أمينةً؛ وكانَت، أَخيراً، شرِّيرةً فصارَت خيِّرةً. لَقد سعَت جدَّتُكِ إلى أَن تَصنعَ مِثلَ صَنيعِها. افعَلوا مِثلَها يا أَعزّائيَ الصِّغارَ؛ سيَكونُ ذلك عليكُم هيِّناً فأَنتُم لا تَحملُونَ كلَّ عُيوبِ صوفي.

الكونتيسة دو سيغُور



الفصل الأوّل
دُميةُ الشّمع

قالت صوفي يوماً وهي تُسرِع إلى داخل غرفتها: مُربّيتي، يا مُربّيتي، تعاليْ بسرعة لتفتحي صندوقاً أرسله إليّ أبي من باريس؛ أظنّ أنّها دُمية من الشّمع، لأنّه وعدني بواحدة.

المُربيّة: أين هو الصّندوق؟

صوفي: في غرفة الانتظار. تعاليْ بسرعة، يا مُربّيتي، أتوسّلُ إليكِ.

وَضعت المربّية ما كان بين يديْها وتبِعت صوفي إلى غرفة الانتظار. كان صندوق من الخشب الأبيض قد وُضِع على كرسيٍّ؛ فتحته المربّية. لمحت صوفي الشَّعَر الأشقر المُجعَّد لدُمية جميلة من الشّمع؛ أطلقت صيحة فرحٍ وأرادت أن تُمسك بالدُّمية وهي لا تزالُ مُغطّاةً بوَرق اللفّ.

المُربَّية: احذري! لا تجْذِبي أكثر؛ ستُكسّرين كلّ شيء. إنّ الدّمية مشدودة إلى أَربِطة.

صوفي: اقطعيها، انتزعيها؛ بسرعة، يا مُربِّيتي، أريد أن أحصُل على دُميتي.

وعوضَ أن تجذب المربّيةُ الأربطة وتنتزعها، أخذت مِقصّها، وقطعتها، ونزعت الورقَ، وتمكّنت صوفي من أن تأخُذ الدُّميةَ الأجملَ التي لم ترَ مثلَها في حياتِها قَطُّ. كان خدّاها ورديّيْن فيهما غمّازتان صغيرتان؛ والعينان زرقاوين برّاقتين؛ والرّقبة، والصّدر، واليدان من الشّمع، كلّها فتّانة ومُكتنزة. أمّا الزِّينة فكانت غايةً في البساطة: فستان من النّسيج القطنيّ مُزخرف، حزام أزرقُ، جواربُ من القطن، وحذاءٌ أسودُ من الجلد اللّمّاع.

قبّلت صوفي دُميتها أكثر من عشرين مرّةً، وأخذت تَقفِز وتَرقُص وهي تَحملُها بين يديْها. ابنُ عمّها بول، البالغُ من العمر خمسة أعوامٍ والذي كان في زيارة إلى منزل صوفي، هُرِعَ عند سماعه صيحات الفرح التي كانت تُطلقها ابنةُ عمِّه.

- بول، اُنظر ما أجمل الدّمية التي أرسلها إليّ أبي! صاحت صوفي.

بول: أَعطينيها، أُريد أن أُمعِنَ فيها النّظر.

صوفي: لا، إنّكَ ستكسّرها.

بول: أؤكّد لكِ أنّني سأنتبه إلى سلامتها؛ سأُرجعها إليكِ على الفور.

أعطت صوفي الدّمية إلى ابن عمِّها، موصيةً إيّاه مرّة أخرى بأن يحاذر جيّداً من إسقاطها. أدارها بول، ونظر إليها من كلّ

الجوانب، ثمّ ردّها إلى صوفي وهو يهُزّ رأسَه.

صوفي: لماذا تهُزّ رأسك؟

بول: لأنّ هذه الدّمية ليست صلبة؛ أخشى أن تكسِريها.

صوفي: أوه! اطمئنّ، سأعتني بها حتّى لا أكسرها أبداً. سأطلب من أمّي أن تستدعي كاميليا ومادلين لِتُفطرا معنا كي أُطلعَهما على دُميتي الجميلة.

بول: إنّهما ستكسِرانها لكِ.

صوفي: لا، إنّهما أَطيبُ من أن تُسبِّبا لي الألمَ بتكسير دُميتي المسكينة.

وفي الغد، مشّطت صوفي شَعرَ دُميتها وألبستها ثيابها، فقد تجيء صديقتاها. وعندما كانت تُلبسها ثيابها وجدتها شاحبةً. قالت: لعلّها أحسّت بالبَرْد، إنّ قدميْها متجمِّدتان. سأُعرِّضها قليلاً لأشعّة الشّمس حتّى ترى صديقتاي أنّني أعتني بها جيِّداً وأنّني أتعهّد بتدفئتها جيّداً. ذهبت صوفي تُعرِّض الدُّميةَ لأشعّة الشّمس من نافذةِ غُرفةِ الاستقبال.

سألَتها أُمُّها: ماذا تفعلين أَمامَ النّافذة، يا صوفي؟

صوفي: أريد أن أُدفئ دُميتي يا أمّاه؛ إنّها تُحِسّ ببَرْد قارس.

الأمّ: انتبهي، إنّكِ ستُذوِّبينها.

صوفي: أُوه! لا يا أمّي، ليس ثمّة من خطرٍ؛ إنّها صلبة

كالخشب.

الأمّ: ولكنّ الحرارة ستجعلُها رَخوةً. ستُصيبُها مُصيبَةٌ، إنّي أُحذّركِ.

لم تَشأْ صوفي أَنْ تُصدِّق أُمَّها، ووضعت دُميتها مُستلقيةً على طولها قُبالة الشّمس الحارِقة.

حينَئذٍ سمعت صوفي هدير سيّارة: إنّهما صديقتاها قد وصلتا. ركضت في استقبالهما؛ وكان بول في انتظارهما عند دَرَج المَدخلِ؛ دخلتا قاعة الاستقبال وهما تركضان وتتكلّمان في الوقت نَفسِه. ورغم لَهفتِهما لرؤية الدّمية فإنّهما بدأتا بتقديم التّحيّة إلى السيّدة دو ريان، والدة صوفي؛ ثمّ ذهبتا بعد ذلك نحو صوفي التي كانت تَحمل دُميتَها وتنظُر إليها وهي ذاهِلة.

مادلين، وهي تُشاهدُ الدّميةَ: الدّميةُ عمياءُ! إنّها بلا عينيْن.

كاميليا: يا لَلخسارةِ! ما أَجمَلَها!

مادلين: لكنْ كيف صارت عمياءَ! ينبغي أن تكون ذاتَ عينيْن.

لَم تَنبِس صوفي بِبنت شَفَة؛ كانت تنظُر إلى الدّمية وتبكي.

السيّدة دو ريان: كنتُ قد نبّهتكِ، صوفي، أنّه سيقَع مكروهٌ لدُميتكِ إن أنتِ أصررتِ على تعريضها للشّمس. من حسن الحظّ أنّ الوجه واليديْن لم يَسَعها الوقتُ حتّى يذوبا. هيّا! لا

تبكي؛ أنا طبيبة ماهِرةٌ جدّاً، لَعلّي أستطيع أن أرُدّ إليها عينيْها.

صوفي، باكيةً: هذا مستحيل، يا أمّي، إنّهما لَم تعودا موجودتيْن.

أَخذت السيّدةُ دو ريان الدّميةَ وهي تبتسِمُ وهزّتها قليلاً؛ سُمِع صوتُ شيء يتقلّبُ داخِل الرّأس. إنّ العينيْن هما اللّتان تُصدِران هذا الصّوتَ الذي تَسمعين، قالت السيّدةُ دو ريان؛ إنّ الشّمع قد ذاب في مُحيط العينيْن فسقطتا. ولكنّي سأعمَل على إعادتهما. انزعوا عن الدّمية ثيابها، يا أبنائي، ريثما أُعِدُّ أدواتي.

وسُرعان ما انقضّ بول والبُنيّاتُ الثّلاثُ على الدُّمية ليخلَعوا ملابِسها. وأقلَعت صوفي عن البكاء؛ كانت تَنتظِرُ بِفارِغ الصَّبر ما سَوف يَحدث.

عادَت الأمُّ، وتناوَلت المِقصَّ، وقطَعت الجِسمَ المَخيطَ في مُستوى الصّدر؛ فتَساقطَت العيْنان اللّتان كانتا في الرّأس على رُكبتيْها؛ فالتقطَتهما بمِلقَطٍ وأعادتهما إلى موضِعيْهما حيثُ ينبَغي أَنْ يكونا، وحتّى تمنَعَهما من السُّقوط ثانِيةً سَكبت في الرّأس، وفي المَوقع الذي كانَت فيه العيْنان شَمعاً مُذاباً حَملَته في آنِية صغيرة؛ اِنتظَرت بَعضَ لحظاتٍ حتّى يَبرَد الشّمعُ، ثمّ أعادت خِياطةَ الجِسمِ عند الرّأس.

لَم تَكُن الصَّغيراتُ يُحرِّكْن ساكِناً. تابَعت صوفي في انشغال كلّ تلك العمليّاتِ، كانت تَخشى ألاّ يَتِمَّ الأمرُ بِسلامٍ؛ ولكنّها،

لمّا رأَت دُميتَها قَد أُصلِحت وصارَت جميلةً كما كانت في السّابِق، قَفزَت فعانَقت أُمَّها وقبَّلتها عَشرَ مَرّات.

وقالت: شُكراً لكِ، يا أمّي الحبيبةَ، شُكراً؛ في المَرّةِ القادِمةِ سَوفَ أَعملُ بِنَصائحكِ، طبعاً.

أُلبِست الدُّميةُ ثانيةً على عَجَلٍ، أُجلِست على أَريكَةٍ صغيرةٍ وأُخِذت في نُزهةٍ وَسطَ مَوكبٍ حَماسِيٍّ والجَميعُ يُغنّونَ:

تَحيا أُمّي!
سأَلتَهِمُها بِالقُبلاتْ.
تَحيا أُمّي!
إنّها مَلاكُنا باعِثُ الخَيراتْ.

وعاشَت الدُّميةُ مُكرَّمةً مُعزَّزةً زَمناً مَديداً؛ ولَكنّها فقَدت شيئاً فشيئاً مفاتِنها، وإليكُم كَيفَ كان ذلك.

ذاتَ يومٍ، وقد ظنّت صوفي أنّ تحميمَ الدّمى عملٌ جيّدٌ، مثل تحميم الأطفال؛ جاءت بماء وإسفنجة وصابون، وأخذت تنظِّف دُميتها؛ لقد نظّفتها بِعناية فائقةٍ حتّى طَمسَت ألوانَها جميعاً: صار الخَدّان والشَّفتان شاحبيْن كأنّ صاحبتَهما مَريضةٌ، وظَلاّ على الدَّوامِ بِلا لَون. فبكَت صوفي، لَكنَّ الدُّميةَ ظلَّت شاحِبةً.

وفي يومٍ آخر، رأَت صوفي أَنَّهُ يَجبُ أَنْ تُجعّد شعر دُميتِها؛

فوضَعت لها لُفافاتٍ: ومرَّرت علَيها مَكوَى الشَّعرِ حتَّى يتَسنَّى تَزيينُ الخَصلاتِ بِطريقَةٍ أَحسن. وعِندَما نَزعَت عنها اللُّفافاتِ بَقِي الشَّعر بِداخلِها؛ كانَت المِكواةُ ساخنةً جدّاً، لقَد أَحرقَت صوفي شَعر دُميتِها، التي صارَت صَلعاء. فبكَت صوفي، لَكنَّ الدُّميةَ ظلَّت صَلعاء.

وذاتَ يومٍ آخَر، أَرادَت صوفي التي كانَت تَهتمُّ كثيراً بِتربيةِ دُميتِها أَنْ تُعلِّمها بعض المهارات الجسمانيّة. فعلَّقتها من بَينِ يَديْها إلى خَيطٍ؛ ولَم تكُن الدُّميةُ مُستَمسِكةً فسقَطت وانكَسرَت لَها يَد. حاولَت الأمُّ جَبرَها؛ ولمّا كانَت تَنقُص قِطعٌ عَديدةٌ كان يَلزَم تَسخينُ الشّمع كَثيراً، فظلَّت اليدُ أَقصرَ مِنَ اليدِ الأُخرى. فبكَت صوفي، لَكنَّ اليدَ ظلَّت أَقصر.



ومَرّةً أُخرى، قدَّرت صوفي أَنَّ حمّاماً ساخِناً للقَدميْن يُمكنُ أَنْ يكونَ نافِعاً جدّاً لدُميتِها، ما دامَ الأشخاصُ الكبارُ يَتمتّعون بِذلك. فصبَّت ماءً مُغلًّى في سَطلٍ صَغيرٍ، وغطَّست فيه قَدميْ الدُّميةِ، وعندَما أَخرجَتها كانَت القدَمان ذائبَتيْن، وراسِبتيْن في قاع السَّطل. فبكَت صوفي، لَكنَّ الدُّميةَ ظلَّت بِدونِ قَدميْن.

ومُنذُ تلكَ المِحَنِ كُلِّها، لم تعُد صوفي تُحبّ دُميتَها فقد صارت بَشِعةً، تسخَر منها صديقتاها؛ وفي نِهاية المطاف، وفي يوم أخيرٍ، أَرادَت صوفي أَنْ تُعلِّمها تَسلُّقَ الأشجارِ؛ فأَرْقَتها على غُصنٍ، وأَقعدَتها؛ ولَكنَّ الدُّميةَ التي لَم تكُن مُتماسِكةً سَقطَت: ارتطَم رأسُها بِحجارةٍ وتَهشَّم إلى مائةِ قِطعة. لَم تَبكِ صوفي، بَل دَعت صديقتيها إلى أَنْ تأتيا كَي تساعداها على دفنِ دُميتِها.

الفصل الثاني

الدَّفن

في صبيحةٍ يومٍ من الأيّام وصلت كاميليا ومادلين لحضور موكب دفن الدّمية: كانتا مُبتهجِتيْن؛ ولم يكن صوفي وبول يقلاّن عنهما ابتهاجاً.

صوفي: تعالَيا بسرعة، يا صديقتيَّ، نحن في انتظاركما كي نُجهّزَ نَعش الدّمية.

كاميليا: ولكنْ في أيِّ شيءٍ سنضَعها؟

صوفي: عندي عُلبة قديمة مُخصّصة لِلُّعَب؛ وقد غلّفتها مُربِّيتي بنسيج قُطنيّ ورديّ اللّون؛ إنّها جميلة جدّاً؛ تعالَيا لتُشاهِداها.

وتراكضت الصّغيرتان إلى منزل السيّدة دو ريان، حيث كانت المربّية قد فرغت من خِياطة الوِسادة والحَشِيَّة اللّتيْن يُنتظَرُ أن ترتّبا داخل العلبة؛ أعجِبت الفتيات الثّلاث بهذا النَّعش اللّطيف؛ وسَجَّيْن فيه الدّميةَ، وكَيْ لا يُرى الرّأسُ المُهشّمُ والقدمان المُذوّبتان واليدُ المكسورةُ قُمنَ بتغطيتها بِغِطاء سريريّ صغير مصنوع من نسيج حريريّ ورديّ اللّون.

ووُضِعت العُلبةُ على نقّالة كانت الأمّ قد ساعدتهنّ في صُنعها. وكانت الفتياتُ جميعُهنّ يرغبن في حملها؛ رغم أنّ

ذلك كان مُتعذّراً، فلا مكان إلاّ لشخصيْن اثنيْن. وما لبثوا بعد أن تدافعوا قليلاً، وتخاصموا، أن قرّروا أنّ صوفي وبول، وهما الاثنان الأصغران، هما من سيحمل النقّالةَ، وأنّ كاميليا ومادلين ستمشيان الواحدةُ تِلوَ الأخرى، وهما تحملان سلّة من الأزهار وأوراق الشّجر التي يُنتظرُ أن تُنثَر فوق القبر.

ولّما وصل المَوكب إلى حديقة صوفي الصّغرى وُضعت النقّالةُ ومعها العُلبةُ الحاوِيةُ لبقايا الدّمية المسكينة على الأرض. شرع الأطفال في حفر اللَّحدِ؛ ثمّ أنزلوا فيه العُلبة، ونثروا عليها أزهاراً



وأوراقاً، ثمّ جمعُوا في نشاطٍ ما كانوا قد استخرجوه من تراب وأحاطوا به القبر من كلّ جهة وغَرسوا فيه زَهرتيْن من زهر اللَّيلَك. ولاختتام الحَفل ركضوا نحو حوض البستان فملأوا منه مِرشّاتِهم الصّغيرة ماءً كي يسقوا به زهر اللَّيلَكِ؛ وكانت تلك فرصة سانحة لألعابٍ جديدة وضحكاتٍ جديدة فقد كانوا يرشّون أرجل بعضهم بعضاً، ويُطاردون بعضهم بعضاً ويفِرّون من بعضهم بعضاً ضاحكين طوراً صائحين طوراً آخر. إنّه لم يُرَ قطّ دَفنٌ أمرحُ من هذا الدّفن. والحقُّ أنّ المُتوفّاةَ كانت دُميةً



عجوزاً، دون لون أو شعر ودون ساقيْن أو رأس، ولا أحد كان يُحبّها أو يأسف على فَقدها. وانتهى اليوم بفرح؛ وعندما همّت كاميليا ومادلين بالانصراف طلبتا من بول وصوفي أن يكسِرا دُميةً أخرى حتّى يتمكّن الجَمع من أن يحتفل مرّة أخرى بدفنٍ آخرَ مُسلٍّ مثل ذلك الدّفن.

الفصل الثالث

اَلجِير

لم تكن صوفي الصّغيرة مُطيعةً. لقد نَهَتها أمّها عن الذّهاب بِمفردها إلى الفِناء حيث كان البنّاؤون يُشيِّدون مَسكناً للدّجاج، والطّواويس، والإوزّ. وكانت صوفي مُغرمة كثيراً بمشاهدة البنّائين وهم يعملون؛ وعندما كانت أمّها تذهب هنالكَ، كانت تصطحبها معها على الدّوام، إلاّ أنّها كانت تأمُرُها بِالبقاء على مقرُبةٍ مِنها. ثمّ إنّ صوفي التي كانت تريد أن تَركُض يَمنةً ويَسرةً سألَتْها يوماً قائلةً:

- أُمّاهُ، لماذا لا تريدين أن أذهب لمشاهدة البنّائين دونَ مُرافقتِكِ؟ وعندما تذهبين إليهم، لماذا تريدين أن أظلّ دائما بالقُرب منكِ؟

الأمُّ: لأنّ البنّائين يُلقُون الحَجَرَ والآجُرَّ اللّذيْن يُمكن أن يُصيباكِ، ثمّ لأنّ ثمّة الرّمل والجِيرَ اللّذيْن يُمكنُ أن يَجعلاكِ تنزلقين أو يُحدِثا لك ضَرراً.

صوفي: أوه! يا أُمّي، أوّلاً سأحرِص على أن أنتبه إليهما جيّداً، ثمّ إنّ الرّمل والجِيرَ لا يُمكِن أن يُسبّبا الأذى.

الأمّ: أنتِ تعتقدين ذلكَ لأنّكِ بنيّةٌ صغيرةٌ؛ بينما أعلمُ، أنا



المرأة المُجرِّبة، أنّ الجِيرَ يُحرِق.

صوفي: ولكنْ، يا أُمِّي ...

الأمُّ، مُقاطعةً: هيّا، لا تُمعِني في الاعتراض واصمُتي. أنا أعلمُ منكِ بما قد يُسبّب لك ألماً أو لا. لا أريدكِ أن تذهبي إلى ساحة الفِناء من دوني.

طأطأت صوفي رأسها ولم تَعُد تَنبِس بِبِنت شَفَة؛ إلاّ أنّها ظهرت في مَظهر كئيب وحدّثت نفسها بصوت خافتٍ قائلةً:

- سأذهب رغم كلّ شيء؛ هذا ممتع، إذن سأذهب.

ولم تنتظر طويلاً الفرصةَ السّانحةَ للعصيان. فبعد ساعة من الزّمن، جاء البُستانيّ يبحث عن السيّدة دو ريان كي تختار نباتاتِ إبرة الرّاعي (الجيرانيوم) التي كانت تُحمَلُ لِلبَيع. فبقيت صوفي وحيدةً: نظرت في كلّ الجهات خوفاً من أن تلمحها المربّية أو الخادمة، وما إن أحسّت أنّها حقّاً بمفردها حتّى ركضت نحو الباب، ففتحته وذهبت إلى ساحة الفِناء؛ كان البنّاؤون يعملون ولم يشعروا بوجود صوفي بينهم، وهي تتلهّى بمشاهدتهم وبالتفرّج على كلّ شيء، وتفحُّصه. لقد وجدت نفسها بالقُرب من حوض كبير مِنَ الجيرِ مَملوءٍ تماماً، أبيضَ متماسك كأنّهُ القِشدة.

حدّثت صوفي نفسها قائلةً: ما أَشدَّ بياضَ هذا الجِيرِ وما أجمَلهُ! إنّي لم أكن أراه بهذا الجمال أبداً؛ أمّي لا تترُكُني البتّة أقترب منه. ما



أشدّ تماسكَهُ! لا بدّ أنه ناعمٌ ولذيذٌ تحت القدميْن. سأعبُر الحَوض بأكمله، وأتزحلَق فوقه مِثلما أَصنَع فوق الجَليد.

وضعت صوفي قدمها فوقَ الجِيرِ، وهي تَحسَب أنّه صُلبٌ كالأرض. لكنّ قدمها غاصت فيه؛ ولكي تتفادى السقوط، وضعت قدمها الأخرى، فغاصت حتّى منتَصف ساقيْها. صرخت، فهُرِع أحدُ البنّائين، وانتشَلها، وطرحها على الأرض وقال لها:

- اِخلَعي بسُرعة حِذاءكِ وجَوربيْكِ، يا آنستي؛ لقد احترقَت كلّها؛ إنّ الجِيرَ سيُحرق لك ساقيْكِ إن أنت بقِيت مُرتدِية لها.

نظرت صوفي إلى ساقيْها: رغم الجِيرِ الذي لا يزال عالقاً بها فقد رأت أنّ فردتيْ حِذائها وجوربيْها صارت سوداءَ كأنّها أُخرِجت لتوِّها من النّار. فصارت تَصرُخ بصَوت أعلى، لا سِيّما أنّها بدأت تُحسّ بوَخزات الجِيرِ الذي بات يُحرِق ساقيْها. ومن حسن الحظّ أنّ المربّية لم تكن بعيدة؛ جاءت مُسرِعةً، وأدركت على الفور ما وقع، فانتزعت حذاء صوفي وجوربيْها، ومسحت لها قَدميْها وساقيْها بواسطة وزْرتها، ثمّ حملتها بين يديْها ونقلتها إلى المنزل. وحينما كانت صوفي تُحمل إلى غرفتها كانت السيّدة ريان بصدد الدّخول من أجل تسديد أجرة بائع الزّهور.

- ماذا حدث؟، تساءلت السيّدةُ دو رِيان في قلَق. هل أَلحقتِ بنَفسك الأذى؟ لمَ أنتِ حافيةُ القَدميْن؟

لكنَّ صوفي كَانت مُستحِيةً، فلم تَحُرْ جَواباً. ورَوت المربّية للأمّ ما حدث، وكيف أنّ صوفي كادت تحرق ساقيها بسبب الجِير:

- لو لم أكن قريبة جدّاً من الفِناء ولو لم أصلْ في الوقت المناسب أو أكاد، لوجدت ساقيْها في نفس الحالة التي عليها وزرتي. أنظري سيّدتي كيف هي مُحترقة من أثَر الجِيرِ؛ إنّها مليئة بالثّقوب.

شاهدت السيّدةُ دو ريان فعلاً أنّ صدارَ المربّية قد أُتلِف. والتفتت إلى صوفي قائلةً:



- أيّتُها الآنسة، ينبغي أن أجلُدكِ بسبب مخالفتِك؛ ولكنّ الرّبَّ الرّحيمَ قد عاقبكِ بما أصابك من الهلع. لن تُجازيْ إذن بعقوبة أخرى عدا أنّكِ ستعطينَني قطعة النّقود من خمسة فرنكات التي في حوزتك والتي تحتفظين بها لإنفاقها خلال احتفال القرية، وذلك كي أشتري صداراً جديداً لمربّيتك.

أجهشت صوفي بالبكاء، وطلبت الإفراج عن قطعة النّقود التي تملكها، ولكنّ الأمّ أخذتها منها. حدّثت صوفي نفسها وهي باكية، أنّها، في المرّة القادمة، ستُنصت إلى أمّها، وأنّها لن تذهب إلى حيث ينبغي عليها ألاّ تذهب.

الفصل الرّابع

السّمكاتُ الصّغيرة

كانت صوفي طائشةً؛ وكانت كثيراً ما تأتي أعمالاً مُشينةً دون أن تُفكِّرَ في العواقب.

إليكم ما حدث لها ذات يوم:

كان لأُمّها سمكاتٌ صغيرةٌ، ليست أطولَ من دبّوس ولا أكبر من قَصَبة ريشة من ريش الحمام. كانت السيّدة دو ريان تحبّ حبًّا جمًّا سمكاتها الصّغيرة، التي تعيش في حَوض مَملوءٍ ماءً، يرسُب في قاعِهِ الرّملُ الذي تستطيع السّمكاتُ أن تغوص فيه وتختبئ داخله. وعند كلّ صباح كانت السيّدة دو ريان تُوفّر الخبز لسمكاتها الصّغيرة؛ وكانت صوفي تستمتع بمشاهدتها أثناء انقضاضها على فُتات الخبز وتشاجرها من أجل الحُصول عليها.

وفي يوم من الأيّام أهدى لها أبوها مُديةً من الصَّدَف، وكانت المُدية صغيرة وجميلة، استعانت بها صوفي، المُعجَبة بمُديتها، في قَطع خُبزها وتُفّاحها، والبسكويتات والأزهار، وغيرها.

وذات صباح، كانت صوفي تلعبُ؛ وكانت مربِّيَتُها قد أعطتها خبزاً، كانت قد قطَعته قِطعاً صغيرة، وحبّاتٍ من اللّوز كانت قطَعتها إلى أجزاءٍ، وورقات من البَقْلِ؛ فطلبت صوفي من مُربيِّتها

زيتاً وخلاًّ لتَصنَع سَلَطةً.

- لا، أجابتها المربّية؛ قد أُعطيكِ مِلحاً، ولكن لن أعطيك لا زيتاً ولا خلاًّ يُمكِن أن يُلوِّثا فُستانك.

أخذت صوفي الملح، ورشّت منه على سَلَطتِها؛ وبقي لديها الكثيرُ منه.

فقالت في نفسها: لو كان عندي ما يَحتاج إلى التّمليح؟ أنا لا أريد أن أُملّح الخبز؛ أحتاج إلى اللّحم أو إلى السّمك... أوه! لَديَّ فِكرةٌ جيِّدةٌ! سأملِّحُ سمكات أمِّي الصّغيرة؛ سأُقطِّع البعضَ منها قِطعاً قِطعاً بمُديتي، وسأملّح السّمكات الباقية كاملة؛ كم سيكون هذا العمل مُسلِّياً! ما أَجملَه مِن طبق!



وها هي صوفي الّتي لا تقدّرُ أنّ أمّها ستفقد السّمكاتِ الصّغيرةَ الجميلةَ الّتي تُحبّها كثيراً، وأنّ هذه الكائنات الصّغيرة المسكينة ستتعذَّب كثيراً من جرّاء تمليحها وهي على قَيد الحياة أو من جرّاء تقطيعها إلى أجزاء. ركضت صوفي في قاعة الاستقبال إلى حيث كانت السّمكاتُ الصّغيرةُ؛ اقتربتْ من الحوض، واصطادتها كُلَّها، ووضعتها في صَحن من صحون لُعَبها، وعادت إلى طاولتها الصّغيرة، وأخذت عدداً من تلك السّمكات الصّغيرة المسكينة، ومدّدتها في الصّحن، ولكنّ السّمكات الّتي لم تكن تشعر بالرّاحة خارج الماء أخذت في الالتواء والقَفْز قدر ما تستطيع. وحتّى تجعلها مُمدَّدة هادئة، صَبّت صوفي المِلح على ظهرها، وفوق رأسها، وعلى ذيلها. فصارت بالفعل هامِدة: لقد كانت السمكاتُ الصّغيرةُ المسكينةُ مَيِّتةً. وعندما صار صَحنُها مُمتلئاً، أخذت صوفي سمكات أخرى وشرعت في تقطيعها إلى أجزاء. ومنذ طعنة السكّين الأولى تتلوّى السّمكات التّعسة يائسة؛ إلاّ أنّها سرعان ما تصير بلا حراك. إنها تموتُ. وبعد قَطع السّمكة الثّانية رأت صوفي أنّها تَقتلُ السّمكات بتقطيعها إلى قِطعٍ؛ وأبصرت في قلَقِ السّمكاتِ المُملَّحة؛ إنها لا تَتحرّكُ، فأخذت تُعالِجها في رِفق وأدركَت أنّها جميعاً ميِّتة. احمرّ وجه صوفي وصار كحبّة الكَرَز.

قالت في نفسها: ماذا ستقول أمّي؟ ماذا سيكون مصيري، أنا، الشَّقِيّةُ التّعِسةُ؟ ما العملُ لإخفاء ذلكَ؟

فكَّرت بُرهَةً. ثمّ أشرق مُحيّاها؛ لقد وجدت طريقة مُثلَى كي لا



تتفطَّن أُمُّها إلى شَيء.

جمعت بسرعة فائقة كلَّ السّمك المُملَّح والمُقطَّع، ووضعته في صحن صغير، وغادرت الغرفة في هدوء، ثمّ أرجعته إلى الحوض.



وقالت: ستَظنّ أمّي أنّها تقاتلَت، وأنه قد مَزَّق بعضُها بعضاً وأهلك بعضُها بعضاً. سأذهب لأنظّف صُحوني ومُديتي، وأمحو آثار الملح؛ إنّ مربّيتي لم تلحظ لحسن الحظّ أنّني ذهبت في البحث عن الأسماك؛ إنّها مُنشغلة بعملها ولا تهتمّ لأمري.

جازت صوفي دون ضجيج إلى غرفتها، وعادت ثانيةً إلى طاولتها الصّغيرة واستأنفت اللّهوَ بِعُدّةِ المائِدَةِ مِن لُعَبِها. وبعد برهة نهضتْ، وتناولت كِتاباً وشَرعت تتأمّل صوره. غير أنّها كانت قلقة؛ لم تكن تُعيرُ انتباهاً إلى الصّور، كانت تَحسَب طول الوقت أنها تَستمِع إلى أمّها وهي قادمة.

وفجأة، أصابت صوفي قشعريرةٌ، وعلَت وجهَها حُمرةٌ؛ هي تستَمع إلى صوتِ السّيِّدة دو ريان تُنادي الخَدمَ؛ إنّها تسمعها تتكلّم بِصوتٍ عالٍ كأنّها تُوبِّخُ أحدَهم؛ والخَدمُ في جيئة وذهاب؛ ارتعَشت فرائسُ صوفي خوفاً من أن تنادي أمُّها مربّيتَها، بَلْهَ أن تناديَها هي نفسَها؛ ولكنّ كلَّ شيءٍ هدأ، ولم تعُد صوفي تسمع شيئاً.

أمّا المربّية، التي سمعت هي أيضاً الجَلَبَةَ، وكانت مُتطلِّعة إلى معرفة ما يَجري، فقد تركت عملها وخرجت.

ثمّ عادت بعد رُبع ساعة.

وقالت لصوفي:

- حسناً فعلنا، نحن الاثنتيْن، بالبقاء في غُرفتنا دون أن نغادرها! تصوّري أنّ أُمّكِ كانت قد ذهبت لتفقّد سمكاتها؛ فوجدتها كلَّها ميّتةً، بعضُها مُكتملَة الهيئة، وبعضُها مُقطَّعة إرباً إرباً. فاستدعت الخدمَ كلَّهم لُمساءلتهم عن المخلوق الشِّرّير الذي تسبّب في مقتَل حيواناتها الصّغيرة المسكينة؛ ولكنّ أحداً منهم لم يستَطع أو لم يُرد أن يقول شيئاً. وكنت قد لاقيْتُها؛ فسألتني إن كنتِ قد ذَهبتِ إلى قاعة الاستقبال؛ فكان في استطاعتي من حُسنِ الحَظّ أن أجيبها أنّكِ لم تتحرّكي من هذا المكان، وأنّك كنت قد استمتعت بتحضير مأدبة العشاء للُعبِك. فقالت: ما أغرب هذا، كنت ربّما أراهن على أنّ صوفي هي الّتي أتت هذه الفِعلة. فأجبتُها قائلةً: أوه! يا سيّدتي، إنّه ليس في وسع صوفي أن تكون قد اقترفت هذا العمل المُشين. فقالت أُمّك: حسناً، إنّني كنتُ سأُعاقبها عِقاباً صارِماً. ومن حُسن حظّها أنّكِ لم تفارقيها قطّ، وأنّكِ تؤكّدين لي أنّها لا يُمكن أن تكون قد تسبّبت في مقتل سمكاتي المسكينة. فأجبتُها قائلةً: أوه! أمّا هذا، سيّدتي، فإنّني مُتيقِّنة منه تماماً.

سكتت صوفي عن الكلام المُباح؛ ظلّت ساكنةً خَجِلةً مُطأطئة الرّأس، مُمتلِئة عيناها بالدّموع. اعترتها لِلحظةٍ رغبةٌ جامحةٌ في أن تُصارح مربّيتها بأنّها هي من اقترف كلّ شيء، ولكنّ الشّجاعة

خانتها. وظنّت المربّية، وقد رأتها حزينةً، أنّ ما يُشجيها إنّما هو موت السّمكات الصّغيرة المسكينة.

فقالت لها: لقد كنتُ واثقة تماماً أنّكِ ستتكدّرين مثل أمّكِ من المصاب الّذي حلّ بهذه الحيوانات الصّغيرة المسكينة. لكن علينا أن نصارحَ أنفسنا بأنّ هذه السّمكاتِ لم تكن سعيدةً في سجنها؛ لأنّ هذا الحوض في خاتمة المطاف، إنّما هو سِجنٌ بالنّسبة إليها؛ وها هي الآن وقد ماتت، فلن تتألّم بعد اليوم. إذن لا تفكّري فيها إطلاقاً، وتعاليْ كيْ أُسوِّي لك هيئتك للذّهاب إلى قاعة الاستقبال؛ فإنّنا سنتعشّى عمّا قريب.

استسلمت صوفي لمربّيتها تمشّطُ لها شعرها، وتنظّفها، دون أن تعترض بكلمة؛ جازت إلى قاعة الاستقبال؛ وكانت أمُّها هناك.

فخاطبتها قائلة: صوفي، هل أخبرتك مُربّيتُكِ بما أصاب سمكاتي الصّغيرات؟

صوفي: أجل، يا أمّي.

السيّدة دو رِيان: لو لم تكن مربِّيتك قد طمأنتني على أنّكِ كنت معها في غرفتك منذ أن فارقتِني، فإنّي كنتُ سأرتاب في أنّكِ أنتِ الّتي تسبَّبت في موتها؛ كلُّ الخدم يقولون إنّه ليس من بينهم من تسبّب في ذلك. ولكنّي أحسب أنّ الخادِم سيمون المكلَّف بتغيير ماء الحوض ورملِه كلّ صباحٍ، أراد أن يتخلَّص من هذه المشقّة،

فقتَل سمكاتي المسكينة حتّى لا يُحمل على العِناية بها مرَّة أخرى. أنا أيضاً سأقوم بطرده غداً.

صوفي، وهي مُرتاعةٌ: أوه! يا أمّي، هذا الرّجلُ المسكينُ! ماذا سيكون مَصيرُه رِفقَةَ زَوجَتِهِ وأَولادِهِ؟

السيّدة دو ريان: هذا شأنُهُ؛ كان عليه ألاّ يقتل سُمَيْكاتي، الّتي لم تُلحِق به أيَّ أذًى، فقد عذّبها بتقطيعها إرباً إرباً.

صوفي: ولكن ليس هو الفاعل، يا أمّي! أؤكّد لك أنّه ليس الفاعلَ!

السيّدةُ دو ريان: كيف تعرفين أنّه ليس هو الفاعل؟ أنا أعتقد أنّه هو الفاعلُ، وأنّه لا يمكن أن يكون إلاّ هو، ومن الغد سأجعله يُغادرُ دون رَجعة.

صوفي، وهي باكية وضامّة ما بين يديها: أُوه، كلاّ! يا أمّي، لا تفعلي ذلك. أنا هي من أخذَتْ السّمكات الصّغيرة ومن قَتلَتها.

السيّدة دو ريان، في اندهاشٍ: أنتِ!... يا له من جنون! أنت الّتي كنت تُحبّين تلك السّمكات الصّغيرة، أنت لا يمكن أن تكوني قد تسبَّبتِ في تعذيبها وقتلها! أرى جيّداً أنّكِ تقولين ذلك حتّى تُبرِّئي ساحة الخادم سيمون...

صوفي: لا، يا أمّي، أؤكّد لك أنّي أنا الفاعلة؛ أجل، أنا الفاعلة؛ لم أكن أريد أن أقتُلها، كنتُ أريد فقط أن أملّحها، وكنت

أظنّ أنّ الملح لن يسبّب لها ألماً. لم أكن أدري أيضاً أنّ قَطعَها سيُسبِّب لها ألماً، لأنّها لم تكُن تصرخ. ولكنّي، عندما رأيتها ميّتة، قمت بإرجاعها إلى حوضها، دون أن تلحظني مربّيتي فقد كانت منشغلة في عملها، وكنتُ أخرج و أدخل.

ظلّت السيّدة دو ريان بعضَ لحظاتٍ مندهشة للغاية من اعتراف صوفي حتّى أنّها لم تُجِبْ. رفعت صوفي بصرها في خَجل فرأت عينيْ أُمِّها مُثبَّتَةً نحوَها، ولكنْ في غير شدّة أو غضب.

وأخيراً قالت السيّدة دو ريان: صوفي، لو كنت علمتُ مُصادَفةً، أقصد بمشيئة الله الّذي يُعاقِب الأشرار دائماً، ما أنتِ بِصدَد سرده على مسامعي لكُنتُ عاقبتك دون شفقة، لا بل بِقسوة. ولكنّ الشّعور النبيلَ الذي قادك إلى الاعتراف بخطئك من أجل تبرئة سيمون يمنحُكِ العفو عنك. إذن لن أوجّه إليكِ اللَّومَ لأنّي على ثِقة من أنّكِ تشعُرين كم كنتِ قاسية تُجاه تلك السّمكات الصّغيرة المسكينة دون أن تفكّري أوّلاً أنّ الملح يُفترَض أن يقضي عليها، ثمّ إنّه يستحيل أن نُقطّع أيَّ حيوان كان أو نقتُله دون أن يتألّم.

ثمّ أضافت، وهي ترى أنّ صوفي كانت تبكي:

- لا تبكي، يا صوفي، ولا تنسيْ أنّ في الاعتراف بأخطائكِ التِماساً للعفو عنكِ.

كفكفت صوفي دمعها، وشكرت أمّها، غير أنّها ظلّت طيلة اليوم حزينةً بعضَ الشّيء فقد تسبَّبت في موت صديقاتها السّمكات الصِّغار.

الفصل الخامس

فَرخُ الدّجاج الأَسوَد

كانت صوفي تذهب كلّ صباح بصُحبةِ أمّها إلى فِناء الدّواجن حيث كان ثمّة دجاج من أصناف مختلفة وذو جمالٍ خلاّب. وكانت السيّدة دو ريان قد وضعت بَيضاً يُحضَن، ومنه يُتَوقَّعُ أن تخرج فِراخٌ بَهِيّةٌ رائعة. وكانت تذهب، كلَّ يوم، برفقة صوفي لترى إن كانت الفراخ قد خرجت من بَيضها. كانت صوفي تَحمِل الخبز في سَلّة صغيرة، وتُلقي منه إلى الدّجاج فُتاتاً. وما إن تصل حتّى كانت الدّجاجات كلُّها، والدِّيَكة جميعُها، تركض نحوَها، وتقفز من حولها، وكانت تنقُر فُتاتَ الخُبز وهو ما يزال بين يديْها، أو داخل سلَّتها. كانت صوفي تضحك، وتجري؛ والدّجاج يقفُو أثرَها: وهو ما كان يُمتعها كثيراً.

وأثناء ذلكَ، كانت أمّها تدخل بهْواً واسعاً، جميلاً، حيثُ تمكُث الدّجاجات؛ كانت تقيم كأنّها أميراتٌ، بل كانت محَظِيّة أكثر من كثيرٍ من الأميرات. وتلتَحق بها صوفي عندما تنتَهي من تفتيت الخُبز كلِّه؛ كانت تنظُر إلى الفراخ الصّغيرة تخرُج من قوقَعتِها، وهي ما زالت بَعدُ أصغرَ من أن تَقدِرَ على الجريِ وَسَط الحُقول. وذات صباحٍ، لمّا دخلَت صوفي إلى القُنِّ، شاهدَت أمَّها

وهي تُمسك بفَرخٍ رائعٍ، قد وُلد لساعته.



صوفي: آه! هذا الفرخ الجميل، يا أمّي! إنّ ريشاتِه سَوداءُ مثل ريشِ الغراب.

السيّدة دو ريان: أُنظري كذلك الجمالَ الفائِقَ لِلعُرْفِ الّذي فوق رأسه؛ سوف يكون فرخاً رائعاً.

ثمّ أعادته السيّدة دو ريان قُرب الدّجاجة الحاضِنة. وما إن وضَعته حتّى نقَرت الدّجاجة الفَرخَ المِسكينَ بمنقارها نَقرةً قويّة. ضربت السيّدة دو ريان الدّجاجة المُعتدِية على منقارها، ورفعت الفرخ الصّغير الّذي سقَطَ وهو يُزقزِق، ثمّ أعادته في جوارِ

الدّجاجة. وفي هذه المَرّة، نهَشت الدّجاجةُ، وقد هاجت، الصّغيرَ المِسكينَ نَهشَتيْن أو ثلاثاً بمنقارها ولاحقته عندما هَمَّ بالرُّجوع إليها.

هُرِعت السيّدة دو رِيان وانتشلَت الفرخ، الّذي كانت توشك الأمّ أن تقضي عليه من هَول ضربات منقارها. ثُمّ سقَته قطرةً من الماء حتَّى تُنعِشَه.

وتساءلت قائلةً: ماذا سنَفعل بهذا الفرخ؟ من المستحيل أن نتركه صحبة أمِّه الشرّيرة، إنّها ستقتله لا محَالة، إنّه جميل جدّاً حتّى أنّي حريصَة لذلك على تربيته.

صوفي: اسمعي، يا أمّاه، ضَعيه في سلّة كبيرة، داخل الغرفة، حيث توجد لُعبي؛ سوف نُعطيه ما يأكله، وعندما يكبُرُ سوف نُعيده إلى القُنّ.

السيّدة دو ريان: أظنّ أنّكِ على حقٍّ؛ اِحمِليه في سلَّة الخبز الّتي لَديكِ، ولنُعِدّ له فِراشاً.

صوفي: أوه! يا أمّي! اُنظُري رقبتَه؛ إنّها تَقطُر دماً، وكذلك ظَهرُه.

السيّدة دو ريان: إنّها من أثر نَقرات الدّجاجة؛ عندما تكونين قد حملتِه إلى المنزل، ستطلُبين من مربّيتك مَرهماً شَمعيّاً وستضعين منه على جُروحه كي تَندمِل.

لا شكّ أنّ صوفي لم تكن مسرورةً برؤيةِ جراحِ الفرخ، ولكنّها انشَرحت بالعُثور على فرصة تَستعمِل خِلالها المَرهَم الشّمعيَّ؛ فركضت تتقدّم أمَّها، وأرت الفرخَ لمربّيتها، وطلبت مرهماً ووضعت منه كمّياتٍ فوق كلّ موضعٍ ينزف. ثمّ أَعدَّت له وجبةً من البَيض والخبز والحليب، عملتْ على خلْطِهِ طيلَةَ ساعةٍ كاملة. كان الفرخ يتألّمُ، لقد كان حزيناً، لم يكن يُريدُ أن يأكل؛ شرِبَ فقط مرّاتٍ عدّة من الماء البارد.

خلال ثلاثة أيّام كانت جروح الفرخ قد اندملَت، وصار يَجولُ أمام مدْرج الحديقة. وبعد مُضيّ شهرٍ كان قد أصبح على جمالٍ أخّاذٍ وأضخمَ كثيراً مُقارنةً بسنِّهِ؛ كان يمكن أن نحسبَه ابنَ ثلاثة شهور على أقلِّ تقدير؛ كان ريشُه أسود سواداً نادراً جدّاً، يَميل إلى الزُّرقة، ناعمَ المَلمس برّاقاً كأنّه خرج لِتوِّه من الماء. أمّا رأسه فكان يغطّيه عُرْفٌ ضخمٌ، ويَكسوهُ رِيشٌ أسود، وبرتقاليّ، وأزرق، وأحمر، وأبيض. أمّا منقاره وساقاه فكانت وردِيَّة اللّون؛ وأمّا مِشيته فكانت بِخُيَلاءَ، وأمّا عيناه فكانتا مُتيقِّظتيْن بَرّاقتيْن؛ إنّه لم يُرَ البتّة فرخٌ أَجملُ منه.

كانت صوفي هي الّتي تكفّلت برعايته؛ وكانت هي الّتي تُقدِّم إليه ما يأكُلُ، وتحرُسه عندما كان يجُولُ أمام المنزل. وكان مُنتَظَراً إرجاعُه إلى القُنّ بعد أيّام قليلة، لأنّه أصبح أصعبَ مِراساً من أن

يُحرَس. كانت صوفي مُضطرّة بعضَ الأحيان إلى مُلاحقته طيلةَ نِصفِ ساعةٍ دونَ أن تَقدِر على الإمساك به؛ لا بل كادَ في إحدى المرّات أن يَغرق عندما ألقى بنفسه في حوض مَملوء ماءً، لم يكُن رآه، إذ كان يجري بسرعة هرباً من صوفي.

حاولت صوفي أن تشُدّه إلى شريط من رجله، ولكنّه راح يَخبِط بجناحيْه، ممّا جعل إطلاق سراحه أمراً لا مَفرَّ منه خوفاً من أن يَكسِر قائمتَيه. ومنعتها أمّها لذلك من أن تتركه يغادر القُنّ.

وقالت السيّدة دو ريان: إنّ ثمّة هنا كثيراً من الكواسر الّتي تستطيع اختطافه؛ ينبغي إذن أن ننتظِره حتّى يَصير كبيراً فنترُكه حُرّاً طليقاً.

ولكنّ صوفي، الّتي لم تكن مُطيعةً، استمرّت في إخراجه خفيةً عن أمّها، وذات يومٍ، وقد علِمت أنّ أمّها مشغولة بالكتابة، حَملت الفَرخَ أمام المنزل؛ فراحَ يلهُو بالبحث عن الحشرات والدّيدان في التّراب، وبين الأعشاب. أمّا صوفي، فكانت تمشّط شعرَ دميتها على بُعد خطوات من الفرخ، فقد كانت تراقبه دائماً لثَنيِه عن الذّهاب بَعيداً. وما إن رَفعت بَصرَها حتّى شاهدت، مُندهِشة، طائراً ضَخماً، مَعقوف المنقار، كان قد حَطّ على بعد ثلاث خطوات من الفرخ. كان يَنظر إلى الفرخ بِاشتهاءٍ عنيفٍ، وإلى صوفي بخَشية. أمّا الفرخ فلم يأتِ حراكاً؛ لقد قَعدَ القُرفُصاءَ،

وصار يَرتعد.

فقالت صوفي: ما أعجبَ هذا الطّائر! إنّه طائر جميل، ولكنْ ما أغرب الهيئة الّتي هو عليها! عندما يَنظر إليَّ يكون في هيئةِ المذعور خوفاً، وعندما ينظر إلى الفرخ، يُسلِّط عليه عينيْه المُرعِبتيْن! ها، ها، ها، ما أعجبَه مِن طائر!

وفي اللَّحظة ذاتِها أطلَق الطّائر صرخة حادَّة متوحّشة، وانقَضّ على الفرخ، الّذي رَدَّ بِصَرخة شاكِية، وأطبَق الطّائر عليه بَين مخالبه، وطار به وهو يَعلو خافِقاً بجناحيْه.

لبِثَت صوفي مَذهولة؛ أمّا أُمُّها، الّتي كانت قد هُرِعت على صرخات الطّائر، فسألتها عمّا حَدث. فأخبَرتها صوفي أنّ طائراً حمَل الفرخَ، وهي لا تعلم معنى ذلك.



هذا يعني أنّكِ فتاةٌ غير مُطيعة، وأنّ هذا الطّائر كاسِر من الكواسر؛ وأنّك سمَحتِ لهذا الطّائر الشرّير بأن يَحمِل فرخيَ الجميل، وبأن يقتله ويفترسه، وأنّكِ ستدخُلين إلى غُرفتك، حيث ستَتعشَّيْن، وحيث ستَمكُثين إلى المساء، حتّى تتعلَّمي في المرّة القادمة أن تكوني أكثر طاعة.

طأطأت صوفي رأسها وذهبت إلى غرفتها حزينة؛ تناولت عشاءَها حِساءً وطبَقاً من اللَّحم جاءَت به مُربِّيتها إليها، فهي تُحبُّها وتبكي لبكائها. كانت صوفي تَبكي فرخَها المِسكينَ، وقد بقيتْ تتحسّرُ على فَقْده زمناً طويلاً.

الفصل السّادس

النَّحلَة

كان الصّغيران صوفي وابنُ عمّها بول يلعبان في غرفتِها؛ كانا يلهُوان بإمساك الذّباب الّذي كان يَجولُ فوق زجاجِ النّافذة؛ وما إن يُمسِكان بِبعضها حتّى يَضعانها في عُلبة صغيرة كان أبواهما قد صنَعاها لهما.

ولّما تَمكّنا مِن الإيقاع بِعدَد كبير منه أراد بول أن يُشاهِد ما كان يَصنع ذاك الذّباب داخل العلبة.



فخاطب صوفي المُمسِكةَ بالعلبة قائلاً: أعطينيها؛ سنشاهد ماذا يَصنع الذّبابُ داخلها.

ناولَته صوفي العلبةَ؛ ففتَح قليلاً بُوَيْبَ العلبة بانتباهٍ شديد. وثبَّت بول بَصرَه قُبالةَ الفَتحةَ وصاح:

- آه! ما أطرفَ هذا الأمرَ! ما أشدَّ اهتزاز الذّباب! إنّه يصطرعُ؛ ها هي واحدة تَجذِب صديقتها من رِجلها... والأخرى غاضبة... أوه! ما أحمَى عِراكه! ها هو البَعض مِنه قد تَهاوى! ها هو قد عاوَد النّهوض...

فخاطبته صوفي قائلةً: أتركني أشاهد بِدوري، يا بول.

لكنَّ بول لم يُجِبها وواصَل النَّظرَ ووصْفَ ما كان يَراه.

عيلَ صبرُ صوفي؛ فأمسكَت بزاوية من العلبة وجذبتها برِفقٍ؛ وجذَب بول أيضاً من جِهته؛ غضبت صوفي وجذَبت جذبة أقوى؛ وجذب بول بدوره زاوية العلبة أقوى فأقوى؛ وهزَّت صوفي العلبة هزّاً عنيفاً؛ حتّى تمزّقت. اندفَع الذّباب كلُّه إلى الخارج ووقع على عيون بول وصوفي، أو خدودهما، أو أنفيهما، وهما يحاولان اصطياده فيصفعان وجهيْهما صفعاً شديداً.

خاطبت صوفي بول قائلة: إنّ الغلطة غلطتكَ؛ لو كنت أكثر لُطفاً لأمكنك إعطائي العلبة ولما كنّا مزّقناها.

فأجابها بول بقوله: كلاّ، إنّها غلطتكِ، لو كنتِ أكثر صَبراً، لأمكنك أن تنتظري الحُصول على العلبة، ولكانت لا تزال بحوزتنا.

صوفي: أنت أنانيّ، إنّك لا تفكّر إلاّ في نفسك.

بول: أمّا أنتِ، فإنّكِ فَورَةٌ من الغضب مثل الدّيَكة الرّوميّة في الضّيعة.

صوفي: لست فَورةً من الغضب إطلاقاً، يا سيّدي؛ أنا فقط أجد أنّك شرّير.

بول: أنا لست شرّيراً، يا آنستي؛ أنا فقط أُقول لك الحقيقة، ولهذا أنتِ مُحمرّة من الغضب مثل الدّيَكة الرّوميّة بأعرافها الحمراء.

صوفي: أنا لم أعد أرغبُ في اللّعب مع طفل شرّير مثلك أنتَ، أيّها السيّد.

بول: وأنا أيضاً، لا أرغبُ في أن ألعب مع طفلة شرّيرة مثلكِ أنتِ، أيّتها الآنسة.

وتفارقا ليحردَ كلٌّ منهما في ناحيته. وسرعان ما أصاب صوفي السّأمُ، إلاّ أنّها أرادت أن توهم بول بأنّها مُستمتِعةٌ كثيراً؛ فأخذَت تُغنّي وتُمسِك مرّةً أُخرى بالذّباب؛ غير أنّه لم يَبقَ مِنه الكثير، وما كان بَقِي منه لا يستَسلم لِقبضَتها.

وفجأةً لمحتْ بِمنتهى السُّرور نَحلة ضخمة قد لبِثت هادِئة في زاوِية صُغرى من النّافذة. كانت صوفي تعلَم أنّ النَّحل يلسَع؛ لذا لم تَسْعَ إلى تناوُلها بأصابعها؛ انتزَعت منديلها من جَيبها، ووضعته

فوق النّحلة وقبضت عليها قبل أن تجِد الحشرةُ المسكينةُ الوقتَ الكافيَ لتفِرّ بجِلدها.

كان بول، الذي صار بدوره ضَجِراً، يرمُقُ صوفي فرآها تقبض على النّحلة.

فسألها قائلاً: ماذا ستفعلين بهذه الحشرة؟

صوفي، بِفظاظة: دعني وشأني، أيّها الخبيثُ، هذا أمر لا يعنيك.

بول، بتهكّم: الصّفحَ، يا آنستي الثّائرةَ، ألتمس منك الصّفحَ لكوني كلّمتكِ ونسيتُ أنّك سيّئة التّربية وفاقِدة الكِياسَة.

صوفي وهي تتصنّع احتراماً ساخراً: سأخبر أمّي، يا سيّدي، أنّك تجدني سيّئة التّربية؛ ولّما كانت هي من يَسهرُ على تربيتي فإنّها ستكون في غاية السُّرور لمعرفتِها بذلك.

بول، في قلق: لا، يا صوفي، لا تخبريها: سأكون عُرضةً للتّوبيخ.

صوفي: نعم، سأخبرها بالأمر؛ وإن تمّ توبيخُك فهذا أفضلُ؛ سأكون مسرورةً للغاية.

بول: أيّتُها الشرِّيرة؛ إليكِ عنّي! ما عُدتُ أرغب إطلاقاً في مخاطبتكِ بِكلمة واحدة.

وأدار بول كرسيَّه حتّى لا يَرى صوفي، الّتي ابتهَجت بإثارتها الخوفَ في نَفس الفتى وقد عاوَدت الاهتمام بنحلتها. رفعت ببطءٍ

شديدٍ زاويةً صغرى من المنديل، وضغَطت قليلاً على النّحلة بين أصابعِها عبر المنديل، حتّى تَحُولَ بينها وبين أن تطير، وجذَبت من جَيبها مُديتَها الصّغيرة.

قالت في نفسها: سأحزّ لها رأسها، كي أعاقبها جزاءَ كلّ اللّسعات الّتي اقترفتْها.

وبالفعل، طرحت صوفي النّحلةَ على الأرض وهي مُمسكة بها على الدّوام عبر المنديل، وحَزَّت رأسَها بِجَرَّة سِكّين؛ ثمّ، لمّا وجدَت الأمر مُسلّياً للغاية، استَمرّت في قَطعها إرَباً إرَباً.

لقد كانت مشغولة تماماً بالنّحلة حتّى أنّها لم تَنتبه إلى دخول أمّها، الّتي رأتها جاثِيةً على رُكبتيْها، تكاد تكون جامدة، فاقتَربت رُويداً رُويداً كي تطّلع على ما تفعله طفلتها؛ فأبصرَتها وهي تقطَع القائمةَ الأخيرةَ المتبقّيةَ للنَّحلةِ المِسكينة.

اِغتاظت السيِّدة دو ريان من فظاظة صوفي فجذبت لها أُذنها بقَسوة.

أَطلقت صوفي صَرخة، ووثَبت وَثبةً انتصَبت على إثرها قائمةً، وبقيت ترتَعد أمام أمِّها، الّتي قالت لها:

- أنتِ فتاة شِرِّيرة حقّاً، يا آنسة، أنتِ تقومين بتَعذيب هذه الحشرة رغم ما حذَّرتكِ منه عندما مَلَّحتِ سمكاتي الصَّغيرة المسكينة وقطَّعتِها...

صوفي: لقد نسيتُ، يا أمّي، أؤكّد لكِ أنّي قد نسيتُ.

مدام دو ريان: سيكون لكِ جَرّاء صنيعك هذا ذِكرًى لن تَنسيْها، يا آنسة، أوّلاً بِسَلبك المُدية الّتي في حَوزتك، والّتي لن أُرجعها إليكِ إلاّ بَعد مُضِيٍّ عام، ثمّ بإجبارك على أن تحملي حول رقبتك هذه الأجزاء من النّحلة مُنضَّدة في وِشاحٍ، إلى أن تتساقط هَباءً مَنثوراً.

بَذلت صوفي قُصارى جُهدها، ترجو أُمّها وتتوسّل إليها ألاّ تُرغِمها على حَمل النّحلة في طَوقٍ، ونادَت الأمُّ المربّيةَ، فجاءت لها بوِشاحٍ أسودَ، ونضَّدت أجزاء النّحلة وعلّقتها إلى رقبة صوفي. لم يَجرؤ بول على الكلام؛ كان واجِماً؛ وعندما بَقيت صوفي وحيدة، مُنتحِبة وخَجِلة من طَوقها، عمِل بول على مواساتها بشَتّى الوسائلِ المُمكِنة؛ قبّلها، اِلتَمس منها العفوَ عَمّا كان قد تفوّه به من سخافاتٍ، وأراد حملَها على التَّصديق بأنّ الألوان الأصفر، والبرتقاليّ، والأزرق، والأسود الّتي تلوّن النّحلة أنشأت أثراً جميلاً جِدّاً، وكانت تشبه عِقداً من السّبَج والجواهر. شكَرتهُ صوفي على طِيبتِه؛ لقد تأسَّت قليلاً بصَداقتها مع ابنِ عمِّها؛ ولكنَّها ظلَّت كئيبةً جدّاً بِسبب طَوقِها. وطيلة أسبوع، بقيت قِطعُ النّحلة مُكتمِلةً؛ ولكنْ، أخيراً، في يوم جميل، قام بول، وهو يلعب معها، بتفتيتها وهرْسها حتّى لم يَبقَ شيءٌ سوى الوِشاح. ركض

ليُخبرَ بالأمر خالته، الّتي أذِنت لصوفي أن تَنزع الشّريطَ الأسود عن رقبتها. وهكذا تخلَّصت الفتاةُ من تلكَ الورطة، ومُنذئذٍ لَم تَعُد تُعذِّب أيَّ حيوان إطلاقاً.



الفصل السّابع

الشّعر المُبلّل

كانت صوفي غَنِجَةً، تُحبّ أن تعتني بملبسها، وأن يجدها الآخرون جميلة. ومع ذلك لم تكن تبدو جميلة؛ كان لها وَجهٌ ضَخمٌ غَضٌّ كلّ الغضاضة، وبَشُوشٌ كلّ البشاشة، بِعينيْن رماديّتيْن باهِرتَي الجمال، وأَنفٌ قائمٌ إلى أعلى وغليظ بعض الغِلَظِ، وفمٌ واسعٌ متهيّئٌ دائماً للضّحك، وشعرٌ أشقرُ غيرُ مُجعّد، ومقصوصٌ قصّاً قصيراً مثل شَعْر الفتى. كانت تحبّ أن تكون في أحسن هندامٍ، ومع ذلك كانت على الدّوام رديئةَ المَلبَسِ: فستانٍ بسيطٍ من القماش القطنيّ الأبيض بكُمّيْن قصيريْن، يكشف عن الرّقبة والكتِفَيْن، ترتديه في الصّيف كما في الشّتاء، وجَورَبيْن واسعيْن قليلاً وحذاءٍ من الجلد الأسود. ولم تكن قطّ ترتدي قبّعة ولا قُفّازَين. كانت أُمّها تظنّ أنّ من الجيّد تعويدها على الشّمس والمطر والرّيح والبَرد.

إنّ ما كانت صوفي ترغب فيه كثيراً هو أن يكون لها شعر مجعّد. كانت قد سمعت يوماً أحدهم يُعجَبُ بالشّعر الجميل الأشقر المجعّد عند إحدى صديقاتها الصّغيرات، كاميليا دو فلورفيل، ومنذ ذلك الوقت كانت تسعى دائماً إلى أن تجعل شعرها هي



مجعّداً. ومن بين العديد من ابتكاراتها، إليكم ما خطر ببالها يوماً وكان من أكثر تخيّلاتها بُؤساً.

بعد ظَهيرة أحد الأيّام كانت السّماءُ تُمطر مِدراراً وكان الطّقس شديد الحرارة، حيث أنّ النّوافذ وباب المدخل كانت قد تُرِكَت مفتوحة. كانت صوفي عند الباب؛ وكانت أمّها قد منَعتها من الخروج؛ وكانت من وقت إلى آخر تمدّ يدها كيْ تتلقّى ماء المطر؛ ثمّ تمدّ رقبتها قليلاً كيْ تتلقّى بعضَ القطرات على رأسها. وبتمرير رأسها على هذا النّحو في الخارج، رأت أنّ المِزراب يَسيل بغزارة وأنّ دَفعَةً كبيرة من ماء المطر تسّاقط منه. وتذكّرت في الوقت نفسِه أنّ شعر كاميليا يتجعّد أكثر عندما يكون مُبلّلاً.

وقالت في نفسها: إنْ أنا بلّلتُ شعري فربّما سيكون مجعّداً!

وها هي ذا صوفي تخرج رغم المطر، وتضع رأسها تحت المِزراب، وتتلقّى في سعادة غامِرة دفعات الماء كلّها على رأسها ورقبتها ويديْها وظَهرِها. ولمّا صارت مُبتلّة كثيراً جازت إلى الصّالة وأخذت تُنشِّف رأسها بمنديلها، وتُولي عِناية بتقليب شعرها كي تجعله متجعِّداً. وما هي إلاّ دقيقة واحدة حتّى صار منديلُها مُبلّلاً؛ وحينما أرادت صوفي أن تركض إلى غرفتها لتطلُب من مربّيتها منديلاً آخر وجدت نفسها وجها لوجه مع أمّها. لبِثت صوفي جامِدة ومُرتعِدة وهي مُبلَّلة كلّها، وشعرها



مُنتَفِش، تبدو عليها علامات الحيرة. أمّا أمّها الّتي تفاجأت أوّلاً، فإنّها قد وَجدت ابنتَها في هيئة مُثيرة للسّخرية حتّى أنّها انفجَرت ضاحكةً. ثمّ قالت لها:

- ها هي فِكرة لامعة قد خطَرت بِبالك، يا آنسة! لو كنتِ رأيتِ الهيئة الّتي أنتِ عليها، لضحكتِ على نفسك مثلما أضحك أنا الآن. لقد كنتُ منعتُكِ من الخروج، فعصيتِ أوامري كالعادة؛ ومن أجل مُعاقبتك ستبقَيْن إلى العَشاء على الحال الّتي أنت عليها، بشعرك المنفوش، وفُستانك المُبلَّل، حتّى يُشاهِد أبوك وابن خالتك بول ابتكاراتك الجميلة. إليكِ هذا المنديل كي



تَستكملي تنشيف وجهك، ورَقبتك ويديك.

وبينما كانت السيّدة دو ريان تُنهي كلامها، إذْ بِبولْ يدخل ومعه السيّد ريان؛ ثمّ يتوقّفان مدهُوشيْن أمام صوفي المسكينة، وقد احمرَّ وجهُها خجلاً وأسفاً وانفجر كِلاهما ضحِكاً. وكلّما احمرّت صوفي خجَلاً وطأطأت رأسها، كانت تبدو في هيئة مرتبِكة وبائسة، وكان شعرها المُشعَّث وثيابها المبتلّة تُظهِرها في مَظهرِ مثير للضّحك. وفي النّهاية تساءل السيّد دو ريان عن معنى هذه المسرحية وعمّا إذا كانت صوفي ستتعشّى في يوم العطلة ذاك، يوم الكَرنفال.

السيّدة دو ريان: هو دون شكٍّ ابتكارٌ لتجعل شعرها مجعّداً؛ إنّها تريد حتماً أن يصير مجعّداً مثل شعر كاميليا، الّتي تبلِّله كي تجعله كذلك؛ إنّ صوفي تظُنّ أنّ الأمر سيكون هو نفسه بالنّسبة إليها.

السيّد دو ريان: هذا هو ما يعنيه أن يكون الواحد غَنِجاً! يريد أن يصير جميلاً فإذا به يَمسَخ نفسه ويصير بَشِعاً.

بول: صوفي المسكينة، اذهبي سريعاً نشّفي جسمك، ومشّطي شَعرك وغيِّري ثيابك. لو كنتِ تعلَمين كم أنتِ مُضحِكة لما استَطعتِ البقاء دقيقتيْن أُخرييْن على الحال الّتي أنتِ عليها.

السيّدة دو ريان: لا، ستتعشَّى وهي بهذا الشَّعر المنفوش الجميل وبفُستانها الملطَّخ تُراباً وماءً...

بول، وقد قاطعها مستعطفاً: أوه! يا خالتي، أتوسّل إليك، سامِحِيها، وائذني لها أن تذهب كي تمشّط شعرها وتُغيّر فستانها. يا لَصوفي المسكينة، إنّها في هيئة بائسة!

السيّد دو ريان: سأفعل مثل بول، يا رفيقة دَربي، وأطلب العفو عنها هذه المرّة، وإن هي أعادت الكَرَّةَ، فسوف يكون الأمر مُختلِفاً.

صوفي، باكية: أؤكّد لك، يا أبتاهُ، أنّني لن أعيد الكَرَّة.

السيّدة دو ريان: نُزولاً عند رغبة أبيكِ، يا آنسةُ، سآذن لك

في الذّهاب إلى غرفتك وفي تغيير ملابسك؛ ولكنّك لن تتعشَّيْ في صُحبتنا؛ ولن تجيئي إلى غرفة الاستقبال إلاّ بعد أن نكون نحن قد غادرنا المائدة.

بول: أوه! يا خالتي، اسمَحي لها...

السيّدة دو ريان: لا، يا بول، لا تطلُبْ مِنِّي أيَّ شيء آخر؛ سيكون الأمر كما ذكرتُ، (ثمّ مُخاطبةً صوفي) هيّا، يا آنسة.

تناولت صوفي العَشاءَ في غُرفتها، بَعدَ أن مُشّط شعرها وأُلبِست ثيابَها. وجاء بول بعد العَشاء لزيارتها ورافقَها للَّعبِ في صالة كانت فيها اللُّعَب. ومُنذ ذلك اليوم لم تَعُد صوفي تُحاولُ أن تُعرِّض نفسَها للمطر مِن أجل أن تَجعلَ شَعرها مُجعَّداً.

الفصل الثّامن

الحاجِبان المَقصوصان

أمرٌ آخرُ كانت صوفي راغبة فيه كثيراً، وهو أن يكون لها حاجبان سميكان جدّاً. لقد قيل أمامها يوماً إنّ لويز دو بيرغ الصّغيرة كانت ستكون جميلة لو كان لها حاجبان. وكان لصوفي



منهما حظٌّ قليلٌ، وكانا حاجبَيْن شقراويْن، بحيث لا يظهران غزيريْن. وكانت قد سمِعت أحدَهم يقول أيضاً إنّه، حتّى يَصيرَ الشَّعرُ غزيراً وطويلاً، ينبغي تعهُّده بالقصّ مِراراً.

نظرت صوفي إلى نفسها ذات يوم في المِرآة، فوجدت أنّ حاجِبيْها كانا ضامِريْن كثيراً.

فقالت: مادام الشَّعر يصيرُ أكثرَ كثافةً عندما نَقُصُّه، فإنَّ ذلك يُطبّق على حاجبيْن من الشّعر القصير. سأَقومُ إذَن بِقَصِّهِما حتّى يَنبُتا من جديدٍ أَشدَّ كثافَةً.

وها هي صوفي تأخذ مِقصّاً وتقصّ حاجبيها قصّاً أقصر ما يمكن أن يكون. نظرت إلى نفسها في المِرآة، فوجدت أنّ ذلك قد صيَّرَ لها وَجهَها شَديدَ الطّرافة. ولم تجرؤ على الدّخول إلى غرفة الاستقبال.

قالت: سأَنتَظِر حتّى يُقدَّمَ العَشاءُ؛ لن يُفكِّرَ أحدٌ في النَّظَرِ إليَّ عِندَ الجلوسِ إلى المائِدة.

لكنَّ أمّها، لمّا لم تَرها قادِمةً، أَرسلت ابنَ خالتها بول في طَلَبِها.

صاحَ بِها بول وهو يدخل: صوفي، يا صوفي، أأَنتِ هُنا؟ ماذا تَفعلين؟ تعاليْ لِتتعشّيْ.

أجابت صوفي، وهي تَمشي القَهقَرى، كيْ لا يُشاهِد بول حاجبيْها المَقصوصيْن: نعم، نعم، أنا قادمة.

دفعت صوفي الباب ودخلت.

وما إنْ وَطِئَت رِجلاها أرضَ غرفة الاستقبال، حتّى نظَر إليها كُلُّ الحاضرين ثمّ انفجَروا ضاحِكين.

قال السيِّد دو ريان: يا لَهٰذا الوَجهِ!

وقالت السيّدة دو ريان: إنّها قد قصَّت حاجبيْها.

وقال بول: كَم هِي مُضحِكةٌ! كَم هِي مُضحِكةٌ!

وقال السيِّد دوبير، والدُ بول: غَريبٌ! ما أشدَّ ما غيَّر حاجِباها المَقصوصان في مَظهَرها!

وقالت السيِّدة دوبير: لم أرَ في حَياتي أَشدَّ غرابةً مِنْ هذا الوَجه.

لَبِثت صوفي مُدَلاَّةَ اليَديْن، مُطأطَأةَ الرّأس، لا تدري أين تختبئ. ثمّ فرحت قليلاً عندما خاطَبتها أمُّها قائِلةً:

- اِذهبي إلى غُرفتِكِ، يا آنسة، إنّكِ لا تصدُرُ عنكِ غيرُ الحَماقات، اُخرُجي، واعملي على أنْ لا أراك أبداً طيلة السّهرة.

ذَهبت صوفي إلى غُرفتِها؛ وأَغرَقت مُربِّيتُها بِدورها في الضّحكِ عندما شاهَدت ذاكَ الوَجهَ الضَّخمَ بلا حاجبيْن قد احمرّ كلّه. كان على صوفي أن تَغضَب. فكلُّ الأشخاص الّذين يرَونها يَضحكون مِلءَ أشداقِهم ويَنصحُونها بأنْ تَرسُم بِواسطَة الفَحم مَوضِع حاجِبَيْها. وذات يوم، جلَب إليها بُول رزمةً صغيرةَ الحَجم، مُحكَمة الوَثاقِ، مُحكَمةَ الغَلق.

وخاطَبها في نَغمة ماكِرةٍ: إليكِ، يا صوفي، هذه الهديّةَ التي أَرسلَها أبي إليك.

فردَّت صوفي، وهي تتناول الرّزمةَ على عَجلٍ: ما هذا؟

فُتحت الرّزمةُ: كانت تحتَوي على حاجبيْن غليظيْن حالِكيْ السَّوادِ، شَديدَيْ الكثافة. وقال لها بول: مِنْ أجلِ أنْ تُلصقيهما في المَوضِع حيثُ لم يعُدْ ثَمّةَ حاجِبان. اِحمَرَّ وجهُ صوفي، وغضِبت ورَمَت بالحاجبيْن في وَجه بول، الّذي فَرّ وهو يُقهقِه.

واستَغرقَ حاجباها أكثَر مِن ستّةِ شُهور حتَّى يَنمُوَا، ولم يعودا أبداً كثيفيْن مثلَما رغِبت صوفي في ذلكَ؛ لذلك، ومُنذُ ذلكَ الوقتِ، لم تَسعَ صوفي إطلاقاً إلى أنْ يكونَ لها حاجبان جميلان.

الفصل التّاسع

خُبزُ الخُيول

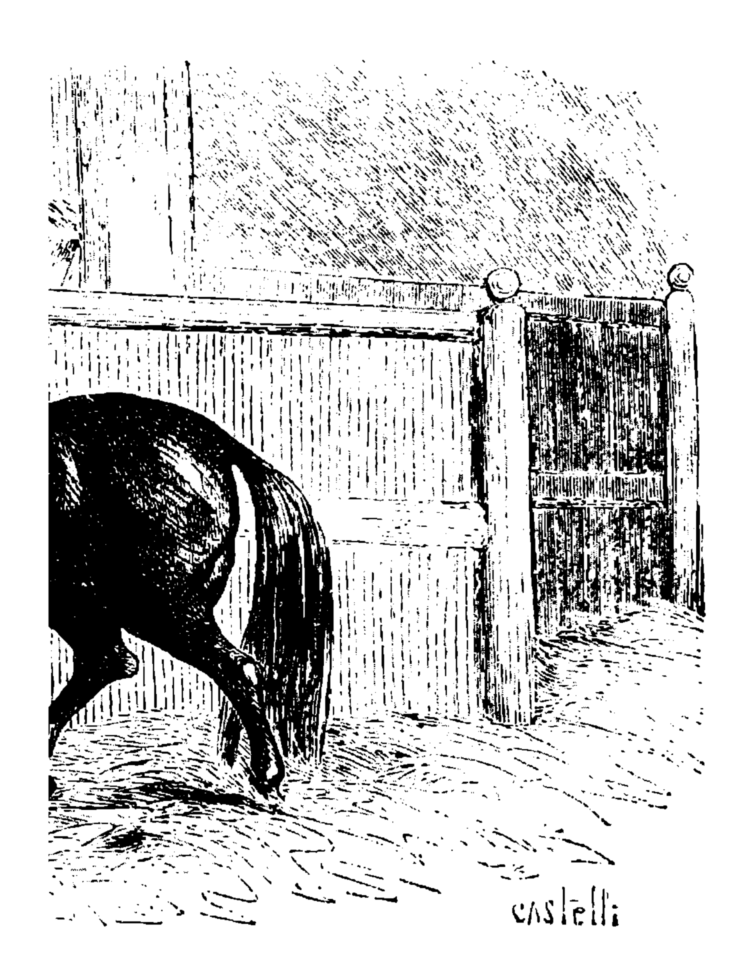
كانت صوفي شرِهةً. وكانت أمُّها تعلَمُ أنَّ المُبالغةَ في الأكلِ مُضرّةٌ بِالصِّحّة؛ فقد كانَت تمنَعها مِنَ الأكلِ بَين وَجباتِها: لكنَّ صوفي النّهمةَ كانت تأكُلُ كلَّ ما تستَطيع العُثورَ علَيه.

كانت السّيِّدة دو رِيان تذهبُ كلَّ يومٍ، بَعدَ الغداء، عند الثّانيةِ ظُهراً، لتُناوِلَ الخبزَ والمِلحَ لخُيول السّيّد دو ريان؛ فقد كان يملِك منها ما يزيدُ على المائَة.

كانت صوفي تَتبَع أمَّها ومعها سلّةٌ مَلأى بِقِطَعٍ من خبز النُّخالة، وكانت تُقدِّم للخيلِ واحدةً في كلِّ إسطَبل تَدخلُه؛ إلاّ أنّ أمَّها كانت تمنَعها بِصرامة مِن أَن تُطعِمَها، لأنّ هذا الخبز الأسودَ فاسِدُ النُّضج قد يُسبِّبُ للخُيولِ ألماً في مَعدتها.

انتَهتا إلى إسطبل صغار الخيل، وكان لصوفي حُصينٌ يَخُصّها هي، كان أبوها قد وَهَبها إيّاهُ: كان حِصاناً أدهمَ صغيراً جدّاً، ليس أكبر حَجماً من حمار صغير؛ وكان يُسمح لها أنْ تُناولَ الخبزَ بنَفسها لحُصينِها. وكانت كثيراً ما تقضِمُ منه قَبلَ أنْ تُعطيَه إيّاه.

وذاتَ يوم، كانت صوفي أشدَّ رَغبةً في خُبز النُّخالة ذاك مِنَ المُعتادِ، فأخذت القطعة بين أصابعها، بكيفيّة لا تترك ظاهراً منه



سوى طَرَف صغير.

وقالت: إنّ الحصان الصّغير سيقضِمُ ما يتجاوز أصابعي، وسآكل أنا الباقيَ.

وقَدّمت الخُبز إلى حصانها الصّغير، الّذي أمسك بالقطعة وفي



الوقت نفسه بطرف إصبَع صوفي فعضَّه بشدّة. لم تجرُؤ صوفي على الصّراخ، ولكنّ الألم جعلها تتخلَّى عن الخبز، الّذي سقط أرضاً: فترك الحصان الإصبَع ليأكل الخبز.

كان إصبع صوفي ينزِف بقوّة، حتّى أنّ الدّم كان يسيل على

الأرض. سحبت منديلها ولفّت به إصبعها بعد أن شدّتها جيّداً، ممّا أَوقف النّزيفَ، غير أنّ ذلكَ لم يتِمَّ إلاّ وقد تَبلَّل المنديلُ دماً. ودَسّت صوفي يدَها المَلفوفةَ تحت صدارها، فلم ترَ الأمُّ شيئاً.

ولكنْ، عندما جلَس الجميعُ إلى المائدة للعَشاء، كان ينبَغي على صوفي أنْ تكشِف عن يديْها، اللّتيْن لم تبرآ بعدُ بما يكفي حتّى ينقطِع نَزيفُ الدّم تَماماً. فكان يحدُث إذن أنْ تأخذ ملعقتها، أو كأسها، أو خبزها، فكانت تُلطِّخ غِطاءَ المائدة. وأَبصَرت أمُّها ذلك.

فقالت لها: ماذا أصاب يديْكِ، يا صوفي؟ إنّ غِطاء المائدةِ ممتلئٌ بِبُقَع الدّم حول صحنِك.

ولكنَّ صوفي لَم تَحِرْ جواباً.

السيّدة دو رِيان: ألا تسمعين عمّا أسألك؟ من أين جاء هذا الدّم الّذي وسَّخ غِطاءَ المائدة؟

صوفي: أُمّاهُ ... إنّه ... إنّه ... بسبب إصبَعي.

السيّدة دو رِيان: ماذا أصاب إصبَعك؟ مُنذُ متى أَصبتِه بِأذى؟

صوفي: مُنذُ هذا الصَّباح، يا أمّي. إنّه حصاني الصّغير الّذي عضَّني.

السيّدة دو رِيان: كيف لِهذا الحصان الصّغير، وهو وديع كالحَمَل، أن يُقدِم على عضِّكِ؟

صوفي: إنّه بِسبب مُناولتي إيّاه الخُبزَ، يا أُمّي.

السيّدة دو رِيان: إنّكِ إذن لم تضَعي الخبزَ في يدِك وتفتحيها تماماً، مِثلما أوصيتك بذلك مِراراً وتِكراراً؟

صوفي: لا، يا أمّي؛ كنتُ أُمسِكُ بالخُبز بَينَ أصابعي.

السيّدة دو رِيان: بِما أنّكِ على هذا القَدَر الكبير مِنَ الغَباء، فإنّكِ لَن تُعطِي الخبزَ لحصانكِ بعدَ الآن.

اِحترَست صوفي مَلِيّاً مِنْ أَن تُجيبَ؛ فكَّرتْ أنَّ السّلَّةَ الّتي يوضَع فيها خبز الخيول ستكونُ في حَوزَتها على الدّوام، وأنّها ستتناول مِنْ هُنا قطعةً ومِنْ هُناك قِطعةً.

وفي الغد، اقتفت أثَرَ أُمِّها في الإسطبلات، وكانت، وهي تمُدّ إلى الخيول قِطعَ الخُبزِ، تأخذ واحدةً، وتدُسُّها في جَيبِها وتأكُلها في غفلة من أمّها.

وعندَما وصلَتا إلى الحصان الأخير، كان لم يعُد ثمَّة شيءٌ لإعطائه إيّاه. أكَّد مُروِّضُ الخيول أنّه كان قد وضَع في السَّلّة مِنْ قِطَع الخبز ما يكفي لكلّ الخيول. ونبَّهته الأمُّ إلى أنّه كانت تنقص واحدة. وبينَما كانت تتَحدّث، شاهدَت صوفي، وقد كان فَمُها مَلآنَ، تتعَجّلُ ازدرادَ اللُّقمةِ الأخيرةِ مِنْ قِطعَة الخبز الّتي كانت قد استَحوذَت عليها. وكانت ارتَأَت أنْ تُسرِع وتَبتلِع خبزها دون أنْ تَمنَح لِنفسِها الوقتَ حتّى تمضَغه، ورأَت الأمّ بِمَلءِ بصرِها أنّها تأكُل القطعةَ الّتي تنقُصُ؛ وكان الحصانُ ينتَظر خبزَه ويُظهِرُ نَفادَ

صَبرِه بِضَربه الأرضَ بحافِره وبصهيله.

خاطبت السيّدة دو ريان صوفي قائلةً: أيّتُها الشّرِهةُ الصّغيرةُ، عندما لا أَنظُر إليكِ، تَسرقين خبزَ خيولي المسكينةِ وتَعصَيْنني، لأنّك تعلَمين كم مِنْ مرّة كنتُ قد نَهيتُكِ عن الأكلِ مِنها. اِذهَبي إلى غُرفتك، يا آنسة؛ لن تأتي مَعي بتاتاً نُقدِّم الطّعام إلى الخيول، ولن أُرسل إليكِ لعشائك سِوى الخبزِ وحِساءِ الخبز، ما دُمتِ تُحبّين الخُبزَ كثيراً.

طأطأت صوفي رأسَها في حُزن وذهبت بخُطًى مُتثاقِلةٍ إلى المنزل نَحوَ غُرفتها.

قالت لها مُربِّيتها: حسناً! حسناً! هيَ ذي أنتِ مرّةً أخرى بوجهٍ حزين! أسُلِّطت عليكِ مرَّةً أخرى عُقوبةٌ؟ ما هي الحَماقة الجديدة التي ارتَكبتِها؟

أجابتها صوفي باكيةً: لقد أكلتُ خبز الخيول فحسبُ. إنّي أُحبُّه كثيراً! لقد كانت السلّةُ ملأى به حتّى ظنَنتُ أنّ أمّي لن تتفَطّن إلى النُّقص. إنّني لن أُطعَمَ سوى الحِساء والخبز الجافِّ وقت العَشاء، أَضافَت قائلةً وهي تبكي بشدّة.

نَظَرت إليها المُربِّيةُ في إشفاقٍ وتَنهَّدتْ. كانت تدلِّلُ صوفي؛ وكانت تجِد أنّ أمّها كانت في بعض الأحيان صارِمةً صَرامةً مُفرِطةً، وكانت تَبحَث عن سبيلٍ لِتَسلِيتها وتخفيف عُقوباتها.

فلمّا جاء أحدُ الخَدم بالحساء وقِطعة الخبز وكأس الماء، ممّا كان يُفتَرض أن يُكوِّنَ عَشاءَ صوفي، تسلَّمتها بِتَبرُّم، ووضَعتها فوق الطّاولة وذَهبت تَفتَح خِزانةً، سحَبت مِنها قطعةً كبيرةً من الجبن وإناءً من المُربَّى؛ ثمّ قالت لصوفي:

- خُذي، كُلي أَوّلاً الجُبنَ مع ما قُدّم إليك من الخبزِ، ثمّ تناولي أصنافَ المُربَّى. ولمّا رأت أنّ صوفي كانت مُتردِّدةً، أضافت: أُمّكِ لا تُرسلُ إليكِ إلاّ الخُبزَ، ولكنّها لم تنهَني عن وَضع شَيءٍ آخَرَ فوقه.

صوفي: ولَكنْ، عندما تَسألُني أُمِّي إنْ كنت أُعطِيتُ شيئاً آخر مع خبزي، يَجبُ عليّ بالتّأكيد أن أُخبِرها بالأمرِ، وآنذاكَ...



المُربِّيةُ: آنذاكَ، آنذاكَ تقولين إنّني أَعطيتُكِ جبناً ومُربَّى، وإنّني أمرتُكِ بأكلِهما، وسأتكفّلُ أنا بِأنْ أَشرَح لها أنّني لم أرغَب في أنْ أَتركك تأكلين الخبزَ جافّاً، لأنّ ذلك لا يفيد المَعِدة في شيءٍ، فحتّى السُّجناءُ يُقدَّم لهم شيءٌ آخرُ عدا الخبز.

تَسبّبت المُربِّيةُ في ضَرَرٍ كَبيرٍ عندَما نَصحَت صوفي أنْ تأكُل خِفيةً ما كانت أمُّها قد نَهتها عنه؛ لكِنَّ صوفي، الّتي كانت بَعدُ فَتِيَّةً، والّتي كانت تشتَهي الجُبنَ الّذي تُحبّه كثيراً وأصناف المربّى الّتي تُحبّها أكثر، فقد أَذعنَت بِكلِّ سُرورٍ وتناوَلت عَشاءً مُمتازاً.

- هل تَعلمين ما ينبَغي عملُه في المَرّة القادِمة، عندما تكونينَ عُرضةً للعِقاب أو تكونُ لَديكِ رغبةٌ في الأكل؟ تعاليْ وأَخبريني؛ سأجِد لا مَحالةَ شيئاً لذيذاً أُعطيكِ إيّاه، وسيَكونُ أَحسنَ مِنَ هذا الخبز الأسود الرّديء المُعَدِّ لِلخيولِ والكِلاب.

وَعَدت صوفي مُربِّيتَها أنّها لن تنسَى نَصيحتَها كُلَّما صادَف أنْ تَشتهِيَ شيئاً لذيذاً.

الفصل العاشر

القِشدَةُ والخُبزُ السّاخِن

كانت صوفي شَرِهةً، وهو ما سبق أن ذكرناه؛ ولم تَنسَ ما كانت مُربِّيتُها قد أوصتها به، وذات يَوم تناولت من طعامها قليلاً، لأنّها علِمت أنّ المُزارِعة قد تُحضِر لمُربِّيتها شَيئاً لذيذاً، فقالت لَها إنَّها تَشعُر بِالجُوع.

أجابَتها مُربِّيتها: آه حَسناً! طلبُكِ جاء في الوقتِ المُناسِب؛ إنّ المُزارِعة كانت قد قدّمت إليّ هديّةً، هي إناءٌ كبيرٌ مِنَ القشدةِ وخبزُ نُخالةٍ طازَجٌ تماماً. سأطعِمك منه؛ ستَريْن كَم هو لذيذ!

ثمّ أَحضَرت على الطّاوِلةِ خبزاً ساخناً وإناءً كبيراً مملوءاً بقِشدةٍ سَميكةٍ مُمتازة. ارتَمت صوفي عليها شرَهاً. وفي الوقتِ الّذي كانت فيهِ المربّيةُ تَنصحها بأَلاّ تكثر من الأكل، سمعت صوت أُمِّها تُنادي: لوسي! يا لوسي! (كان ذلك اسمَ المُربِّية).

جَرت لوسي على الفَور نَحوَ السيّدة دو رِيان لِتعلَم ما تُريدُ؛ وكان الأمرُ لتخبرها بأنْ تُعِدَّ شُغْلاً يَخُصّ صوفي وأنْ تشرَع فيه.

قالت السيّدة دو رِيان: إنّها ستبلُغ قريباً الرّابعةَ مِنْ عُمْرِها، وحان الوقتُ كي تتعلَّم العمل.

المُربِّية: ولكنْ ما الشُّغلُ الذي تطلُب سيِّدتي مِنْ فتاةٍ صغيرةٍ

جدّاً أنْ تَعمَله؟

السيّدة دو ريان: أَعدِّي لها مِنشفةً كيْ تَخيطَ حاشِيتَها، أو مِنديلاً.

لم تُجِب المُربِّيةُ بشيء، وغادَرت غرفة الاستقبال وهي مُتعكِّرةُ المِزاج.

ولمّا دخلَت إلى غُرفتها، رأَت أنّ صوفي مازالت تأكلُ. كان إناءُ القشدة فارغاً تقريباً، وكانت تنقُصُ قطعةٌ كبيرةٌ مِنَ الخُبز.

وصاحت المُربِّيةُ وهي تُعِدّ حاشيةً لصوفي: آه! يا إلهي! ستُصابين بِمَرضٍ! هَل مِنَ المُمكنِ أنْ تكُوني التَهمتِ كلَّ ذلك الطّعام؟ ماذا ستقول والدتُكِ إنْ هي رأَتكِ تتألّمينَ؟ ستكونين السّببَ في جعلِها تُوبِّخُني!

صوفي: كوني مُطمئنّةً، يا مُربِّيتي! كنتُ جائعة جوعاً شديداً، ولن أمرض. إنّ القِشدةَ والخُبز السّاخِن لذيذان جدّاً!

المربِّيةُ: نعم، ولكن ذلك يُثقِلُ المَعدة. يا إلهي! يا لها مِنْ قطعة خبز ضَخمة، لقد أكلتِها! أنا خائفة، خائفة جدّاً مِنْ أنْ تُصبِحي مَريضةً.

صوفي وهي تُقبِّلها: لا، يا عزيزتي لوسي، كوني مطمئنّة، أؤكّد لكِ بأنّي على أحسن ما يُرام.

ناولتها المربّية منديلاً صغيراً لِتخيطَ حاشِيتَه، ودعتها إلى أنْ

تَحمله لأُمِّها، الّتي تُريدُ أنْ تَحفِزَها على العمل.

ركضَت صوفي نَحوَ غرفة الاستقبال حيثُ كانت أمُّها في انتظارها، وقَدّمَت لها المِنديل. أَرت الأمّ صوفي كيفَ يَنبَغي غَرزُ الإبرة وجَذبُها؛ كان العَمل في البَدء رديئاً جدّاً؛ لكنْ، وبَعدَ غَرزاتٍ قليلةٍ، تحسّن عمل صوفي ووجدت أنّه كان مُمتِعاً جِدّاً.

قالت: هل تسمحين لي يا أمّي بأنْ أُقدِّم عملي إلى مُربِّيتي لتراه؟

- نعم، يُمكن أنْ تَذهبي إليها، ثمّ ستَرجِعين لتُرتِّبي أَغراضَك كلَّها وتلعَبي داخلَ غُرفتي.

جرت صوفي إلى غُرفة مربِّيتها، الّتي اندهشت كثيراً فقد شارفت الخياطةُ على الانتِهاء وأُنجِزت بإتقان. وسَأَلَتها في انشِغال إن كانت تشعُرُ بِألم في مَعدتِها.

قالت صوفي: لا، يا مربِّيتي، أبداً، أنا فقط لا أشعُر بِالجوع.

- أنا مُقتَنِعةٌ بذلك كُلَّ الاقتناع، بعد كلّ الّذي أكلتِ. ولكنْ عودي بِسرعة قُربَ أمِّكِ، أَخشى عليكِ أن تُوبِّخكِ.

عادَت صوفي إلى غرفة الاستقبال، ورتَّبت كُلَّ أغراضها وأَخذَت تلعَب. وبَينا هي مُنهمِكةٌ في اللَّعبِ أحسَّت بِتوَعُّكٍ، إنّ القشدة والخبز السّاخن قد أثقلاَ مَعدتَها؛ كانت تُحِسّ بِصُداعٍ في الرَّأس؛ فجلَست على كُرسيِّها الصّغيرِ وظلَّت بِلاَ حراكٍ، وهي مُغمَضةُ العَينيْن.



ولمّا لم تَعُد الأمُّ تَسمَع ضجيجاً التفتَت فرأَت صوفي شاحِبةَ الوَجهِ، في هيئةِ المُتألِّمَة.

فقالت لَها وهي قلِقةٌ: ما بكِ يا صوفي؟ هل أنتِ مَريضة؟

أجابتها قائلةً: إنِّي أتألّم، يا أمِّي؛ أشعُر بوجَع في رأسي.

منذ متى كانَ ذلك؟

منذ أنِ انتهيتُ مِنْ ترتيب أغراضي.

هل أكلتِ شيئاً ما؟

تردّدت صوفي ثمّ أجابت في هَمسٍ:

لا، يا أمّي، لا شيءَ البتّة.

أرى أنّكِ تكذِبين؛ سأذهبُ لأسأل مربِّيتَك، الّتي ستُطلِعني على الأمر.

خرجت الأمّ وظلَّت غائبةً بعض الوقت. وعندما رجَعت، كانت تبدو غاضِبةً جدّاً.

لقد كذِبتِ، يا آنسة؛ لقد أَخبَرتْني مربّيتُك أنّها كانت قد أَعطتْك خبزاً ساخِناً وقشدةً، وأنّكِ قد التهمتِهما مثلَما تلتَهمُ الشَّرِهةُ الأكل. يا لَوَضعِكِ السَّيّئ! لأنّكِ ستمرضين ولن تستطيعي المَجيءَ غداً إلى العَشاء عندَ عمتك دوبير بصُحبة ابنِ خالتك بول. كانَ يُمكنكِ رُؤيَةُ كاميليا ومادلين دو فلورفيل؛ ولكنْ، عِوضَ أنْ تستمتِعي، وأنْ تجري في الغابة للبَحث عن

الفراولة، ستَبقَيْن وَحيدةً في المنزلِ ولنْ تأكُلي إلاّ الحِساء.

أمسكَت السيِّدةُ دو ريان يَدَ صوفي، فألفَتها مُلتهِبةً وحملَتها كي تُرقِدَها.

وقالت للمربِّية: إنّي أنهاكِ عن إعطاء صوفي أيَّ شيءٍ صالحٍ للأكلِ حتَّى يومِ الغَدِ؛ اسقيها الماءَ أو مُغَـلّـى أوراق البُرتُقالِ، وإذا ما كرَّرتِ ما فَعلتِ هذا الصَّباحَ، فسأَطرُدُكِ على الفور.

شعَرت الخادمةُ بالذَّنب؛ فلم تَحُرْ جواباً. واستسلَمت صوفي وقد كانت مريضةً حقّاً إلى أنْ تُنقلَ إلى السّرير دون أن تقول شيئاً. قضت ليلة سيِّئة، وهي مُضطرِبةٌ كثيراً؛ كانت تحسّ بألَمٍ في رأسِها وفي مَعدتِها؛ فلم تنم إلاّ عند الصَّباح. وعندَما استيقَظت، كانت لا تزالُ تحسّ بوجع في رأسِها، ولكنَّ إطلاقَ الرِّيح القويّةِ أراحها كثيراً. مضَى يومُها حزيناً، وهي مُتأسِّفةٌ على تفويتِها العَشاء عند عمَّتها.

ظلّت مُتألِّمةً طيلَةَ يومَيْن آخرَيْن، ومنذ ذلك الوقتِ صارت تعافُ القشدة والخبز السّاخن، حتّى أنّها لم تعُد تأكلُهما البتّة.

كانت تذهبُ في بعضِ الأحيان صُحبة ابن خالتها وأصدقائها عند جاراتهم من المُزارِعات؛ وكان النّاسُ جميعاً مِنْ حولها يستمتعون بأكلِ القشدة وخبز النُّخالة، ووحدَها صوفي كانت لا تأكلُ شيئاً؛ كان مَنظرُ تلك القشدة اللّذيذة، السّميكة، الرّاغية،

وذاك الخبز المصنوع في الضّيعة يذكّرها بما كانت قد عانته جرّاء إسرافها في الأكل، ويُسبّب لها ضيقاً في الصَّدر. ومنذ ذلك الوقتِ أيضاً لم تعُد تُنصِت إلى نَصائحِ مُربِّيتها، الّتي لم تَمكُث طويلاً في المَنزل. فقد اتَّخذت السّيّدةُ دو ريان، الّتي لم تعُد واثقةً بها، مربِّيةً أخرى، كانت طيِّبةً جدّاً، إلاّ أنّها لا تَسمحُ لصوفي أبداً بأن تَفعلَ ما كانت أُمُّها تَمنَعها مِن فِعلِه.

الفصل الحادي عشر

السِّنجَاب

كانت صوفي ذاتَ يوم تتَنزّه برِفقةِ ابن خالتها بول في غابة البلّوط الصّغيرة الّتي كانت قريبةً جدّاً من القصر؛ كان الاثنان يبحثان عن ثمار البلّوط حتّى يَصنَعا منها سِلالاً، أو قباقيبَ، أو سُفناً. وفجأةً أَحسّت صوفي بثمرة تسقُط على ظَهرها؛ وبينَما هي تنحَني لِتلتقِطها، سقَطت بلّوطة أخرى على طرف أذنها.

فقالت: بول، يا بول، تعال إذاً كي تُشاهد هذا البلّوط الذي يسقط فوقي: إنّه مَقروض. ما الذي استطاع أنْ يقرِضه في الأعلى؟ الفئرانُ لا تَتَسلّقُ الأشجار، والعصافير لا تأكلُ البلّوط.

أخذ بول البلّوط، وتأمّله؛ ثمّ رفع رأسه وصاح:

- إنّه سنجابٌ؛ إنّي أراه؛ إنّه في الأعلى فوق غصن؛ إنّه يُشاهدنا كأنّه يَسخَر مِنّا.

نظرت صوفي إلى الأعلى فرأت سِنجاباً صغيراً جميلاً، بِذَيله الفَخْم المُرتفِع ذي الألوانِ المُتعدِّدة. كانَ يُنظِّفُ وجهَه بطَرفَيه الأماميّين الصّغيرين؛ ومِنْ حين لآخر كان يَنظُر إلى صوفي وبول، ثمّ ينُطّ نطّةً، ويقفِز فوق غُصن آخر.

قالت صوفي: كم أنا راغبة في الحصول على هذا السِّنجاب! ما

ألطفَه وما أشدَّ مُتعتي باللَّعب معَه، وبِحمله إلى التنزّه، والاعتناء به.

بول: ليس مِنَ العسير الإمساك به: ولكنَّ السّناجب تُسبِّب روائحَ كريهةً في الغرفة، ثمّ هي تقرِضُ كلَّ شيء.

صوفي: أوه! سأَمنعُها مِنَ القَرض مَنعاً، لأنّني سأقوم بِغَلقِ جميع أغراضي؛ ولن تكونَ رائحتُه كريهةً، لأنّني سأُنظِّف قَفَصه مرَّتيْن في اليوم. ولكنْ، ما ستفعلُ لِلقبض علَيه؟

بول: سأُحضِر قفصاً كبيراً نوعاً ما؛ وسأَضعُ داخلَه جَوزاً وبُندقاً ولَوزاً، وكلَّ ما تُحبّ السّناجب أكلَه، سأَحمِل القَفَص قريباً مِنْ هذه الشّجرة؛ وسأترُكُ بابَه مَفتوحاً؛ وسأربِطُه إلى خَيطٍ؛ سأتوارى قريباً جدّاً مِنَ الشَّجرة، وعندَما يدخُل السِّنجابُ القَفصَ لِيأكُلَ، سأجذِبُ الخيطَ لأُغلِقَ الباب، وسيتِمُّ القبض على السَّنجاب.

صوفي: ولكنْ قد يرفض السّنجاب الدّخولَ في القفص! سيُشعِره ذلك بالخوف.

بول: آه، ما من خطرٍ، فالسّناجب نَهِمةٌ بطبيعتها، وهذا السّنجابُ لن يقاومَ شهّيته للجوز واللّوز.

صوفي: اقبِض عليه مِنْ أجلي، أتوسّلُ إليكَ، يا عزيزي بول؛ سأكونُ مَسرورةً جدّاً!

بول: ولكنْ ماذا ستقولُ أمُّكِ؟ لعلَّها لا تَقبلُ ذلك.

صوفي: هي ستَقبلُ؛ سنَطلُب مِنها نَحنُ الاثنان، مِراراً وتِكراراً، حتّى تُوافق.

ورَكض الطِّفلان نَحوَ المنزل؛ وتولَّى بول تفسيرَ المسألةِ للسيّدة دو ريان، الّتي رَفَضت في البَدء، ولكنَّها انتَهت بالقَبول وهي تقولُ لِصوفي:

إنّي أنبِّهُكِ أنَّ سنْجابَكِ سيُضايِقكِ قريباً: سيتَسلّقُ كلَّ مكانٍ؛ سيَقرِضُ كُتبَكِ، ولُعبَكِ؛ سيَكُونُ كَريهَ الرّائِحة، وسيَصيرُ لا يُطاق.

صوفي: أُوه لا! يا أمِّي؛ أعدُكِ أَنْ أُراقبَهُ جيِّداً حتّى لا يُفسِدَ شَيئاً.

السيِّدة دو رِيان: أوّلاً، لا أُريدُ وُجودَ سنجابِكِ في غرفة الاستقبال، ولا في غُرفَتي، ستُبقينَه على الدَّوام في غرفتِك.

صوفي: نعم يا أمّاه، سيبقَى عندي في غرفتي، ما عدا الوقت الّذي سأحملُه فيه ليتنزَّه.

ركَض صوفي وبول، والفَرحُ يَغمُرهما، يبحَثان عن قفَص؛ فعثَرا في المَخزَن على واحدٍ، كان استُعمِلَ قديماً قفَصاً لِسنجاب. فحمَلاه، ونظَّفاه بمُساعدةِ الخادِمة، ووضَعا داخلَه لوزاً طريّاً وجَوزاً وبُندُقاً.

صوفي: الآنَ، هيّا بنا بسُرعة نَضعُ القفَص تحت الشّجرة. المُهمُّ أنْ يكون السِّنجابُ لا يزالُ مَوجوداً هُناك!

بول: انتَظري حتَّى أربِطَ خيطاً إلى الباب. ينبَغي أنْ أُمرِّره بَينَ القُضبانِ كي يَنغلِق البابُ حينما أَجذِب.

صوفي: أَخشى أنْ يكونَ السِّنجاب قد مضَى في حالِ سَبيلِه.

بول: لا؛ سيبقَى على الشّجرة أو قريباً منها إلى أنْ يَحُلَّ اللّيل. أمّا الآن فقد اكتملت التّرتيبات؛ اجذِبي الخيطَ، ولْنرَ إنْ كان الأمرُ جيِّداً.

جَذَبت صوفي الخَيطَ فانغَلقَ البابُ على الفَور. وذهَب الطّفلاَن، وهُما مُبتهِجان، يَحمِلان القفصَ إلى الغابة الصّغيرة؛ ولّما وَصلا قُربَ شجَرةِ البلّوط نظرَا يَبحثان إنْ كان السِّنجابُ ما يزالُ موجوداً؛ فلم يرَيا شيئاً؛ لا الأوراقُ كانت تتَحرّكُ، ولا الأغصان. وراحَ الطّفلان آسِفَيْن يَبحَثان تَحتَ شَجراتِ بلّوط أُخرى، إلى أَنْ تلقَّت صوفي علَى جبينِها بلّوطة مَقروضةً مِثلَ تلكَ التي تَلقّتْها في الصَّباح.

فصاحت قائلةً: إنّه هنا، إنّه هنا! ها هو ذا؛ إنّي أرى طَرَفَ ذيلِه يَخرجُ مِنْ وراءِ هذا الغُصنِ الكثيف.

وفِعلاً، حَنَى السِّنجابُ، الّذي أَثارَه الحَديثُ، رأسَه الصَّغير إلى الأمام ليَرى ما كان يَجري.



فقال بول: أَحسنتَ، يا صديقيَ العزيز. ها أنتَ ذا: ستكونُ قريباً في السِّجن. خُذْ، ها هي ذي مَؤونةٌ جلَبناها إليكَ؛ كُن أَكولاً، يا صديقي؛ ستَرى ما تكون عليه عقوبةُ الشَّرَه.

صار السِّنجاب المِسكين، الّذي لم يكُن يتوقّعُ أنْ يَصيرَ مَسجوناً شقيّاً، يَنظُر في هيئةِ السّاحِر، وهو يُحرِّك رأسه ذات اليمين، وذات الشِّمال. رأى القفَص الّذي وضعَه بول على الأرض، وألقَى على اللَّوز والجَوز نِظرة اشتِهاء. ولمّا توارى الطِّفلان خلفَ جِذع شجرة البلّوط، نزل السّنجابُ غُصنين أو ثلاثة غُصونٍ، ثمّ توقَّف، نظَر في كلِّ الجهات، نزل مَرّة أخرى قليلاً، وواصل هكذا النّزول شيئاً فشيئاً، إلى أن انتَهى فوق القفَص. مرَّر يداً عَبرَ القُضبان، ثمّ يدَه الأخرى؛ إلاّ أنّه، لمّا لم يستَطع الإمساك

بِشيء وقد تراءى له اللّوز أكثرَ لذّةً، بحَث عن وسيلةٍ لِدُخول القفَص، ولم يُمضِ وقتاً طويلاً للعُثور على الباب؛ توقَّف عندَ المَدخل، ونظَر إلى الخيط نِظرة المُرتابِ، ومَدَّ مَرّةً أخرى يدَه كي يصِلَ إلى اللَّوز أو الجَوز: لكِنَّه، وقد عجَز عَنِ الوصول، غامَر أخيراً بالدّخول إلى القفَص. وما إن صار في الدّاخل حتّى جَذَب الطِّفلانِ الخَيطَ، فقد كانا يَنظُران مِنْ طَرفٍ خَفِيٍّ، وكانا يُتابِعان بِقَلبين خَفّاقين حَركاتِ السِّنجاب، وبِذلكَ تَمَّ القبضُ عليه. لقَد تَمَلَّكه الرُّعبُ فشرع يَرمِي اللّوزَ الّذي كان قد شَرع في قَضمِهِ، وأَخَذ يَدورُ وَسَطَ القفَص مِنْ أَجلِ الخَلاص. ولَكِنْ، هَيهاتَ! علَى هذا الحيوانِ الصَّغيرِ المِسكينِ أنْ يَدفَع ثَمناً باهِظاً جَرّاءَ شَرَهِه وأنْ يَظلّ سجيناً! انقضَّ الطِّفلان على القفَص؛ أَغلَق بول البابَ بِعناية وحَمَلَ القفَص إلى غُرفةِ صوفي. كانَت صوفي تَركُضُ إلى الأمامِ وتُنادي مُربِّيَتَها في هيئةِ المُنتَصِر مِنْ أَجلِ أنْ تُريَها صديقَها الجديد.

لم تكُن المُربِّيةُ مَسرورةً بِهذا الكائنِ الصَّغيرِ الّذي ستُضاف مهمّة الاعتناء به إلى أعبائها الكثيرة.

وقالت: ماذا سنَفعلُ بِهذا الحيوان؟ إنّه سيعَضُّنا وسيتَسبّب لنا بضَجيجٍ لا يُطاق. يا لَها مِنْ فِكرةٍ تناهَت إلى ذِهنكِ، يا صوفي، حتّى تُزعجينا بِهذا الحيوانِ القبيح.

صوفي: أوّلاً، يا مربِّيتي، هو ليس قبيحاً: السّنجاب حيوانٌ جميلٌ جدّاً. ثمّ هو لن يَصدُرَ عنه الضّجيجُ إطلاقاً ولنْ يَعَضّنا. فأنا الّتي ستَعتني به.

المربِّية: في الحقيقة، إنّي مُشفِقةٌ على هذا الحيوانِ المِسكينِ؛ ستترُكينَه عَمّا قريبٍ يموت جوعاً.

صوفي، مستنكرةً: يموتُ جوعاً! لا بِكلِّ تأكيدٍ؛ سأُعطيه البُندُقَ واللَّوزَ والخُبزَ، والسُّكَّرَ والمشروبات.

المربِّية بِنَبرةٍ ساخِرةٍ: هذا سِنجابٌ سيُغذَّى تَغذِيةً جيِّدةً! فالسّكَّر سيُفسِدُ له أسنانَهُ! والشّرابُ سيُفقِده صوابَه.

بول، ضاحِكاً: ها! ها! ها! سيَكونُ ذلك مُسلِّياً جدّاً.

صوفي: أبداً، يا سيِّدي. سيكون سنجابي عاقِلاً جِدّاً.

المربِّية: سنَرى ذلِك. سأَذهَبُ أوَّلاً لأَجلُبَ إليهِ تِبناً، حتَّى يستَطيعَ أنْ ينام. إنَّه يَبدو في مَظهرِ الفَزِع تَماماً: لاَ أظُنُّ أنَّه فرِحٌ وقد وقَعَ القَبضُ علَيه.

صوفي: سأَقومُ بِمُداعَبتِه حتّى يأنَسَ إليَّ وحتّى أُرِيَه أنّنا لنْ نُسبِّبَ له أذًى.

وأَدخلَت صوفي يدَها في القفَصِ، فَفَرَّ السِّنجابُ المُرتاعُ إلى رُكن. ومدَّت صوفي يدَها حتّى تُمسِك به: وحينَما همَّت بأَخذِهِ، عَضَّ السِّنجابُ إصبَعَها. جعلَت صوفي تَصرُخُ وسحَبت بِسُرعةٍ

يدَها المُضرَّجةَ بالدِّماء. وظَلَّ البابُ مَفتوحاً، فهُرِعَ السِّنجاب خارِجَ القفَص وشرَعَ يَجري في الغُرفة. وأَخذَت المربّيةُ وبول يَجرِيان في أَثَرِه. كان السِّنجابُ، حين يَظُنّان أنَّهما قَد قبَضا عليه، يَقفِز قَفزةً، ويُفلِت مِنهما، ويُواصِل الرَّكضَ في الغُرفة؛ أمّا صوفي، التي نَسِيت إصبَعها النّازِفةَ، فقَد رَغِبت في مُساعدَتِهما. واصلوا



مطاردتَهم له مُدّةَ نِصفِ ساعةٍ؛ وبدَأ السِّنجاب يُحِسّ بِالتّعب وكان قابَ قوسيْن أو أَدنى مِنْ أنْ يُقبَضَ علَيه، حينَما شاهَد النّافذةَ وقد بَقِيت مَفتوحةً: وفي الحالِ اندفَعَ نَحوَها، وتَسلَّق طِوالَ الجِدار خارِجَ النّافِذةِ، ووَجَد نَفسَه على السَّقف.

نَزلَت صوفي وبول والمربِّية إلى الحَديقة وهُم يَركُضون؛ ولّما رفَعوا رُؤوسَهم رأَوا السِّنجاب جاثِماً فوق السَّقف، كأَنَّه جُثّةٌ هامِدةٌ مِنْ فَرطِ التَّعبِ والخَوف.

فصاحت صوفي: ما العملُ، يا مربِّيتي، ما العمل؟

فقالت المُربِّية: يَجِب أنْ نتركَه يَمضي في حالِ سبيله. أنتِ تَرينَ جيِّداً أَنَّه قد عَضَّكِ آنِفاً.

صوفي: لأَنَّه لاَ يَعرِفُني بَعدُ، يا مُربِّيتي؛ ولكنَّه سيُحبُّني عِندَما يَرى أَنَّني أُطعِمُه.

بول: أَعتقِد أَنَّه لنْ يُحبَّكِ أبداً، إنّه طاعِن في السِّنِّ ولن يَعتادَ البقاء مُحتجَزاً. كان يَنبَغي العُثورُ علَى سِنجابٍ أَصغر.

صوفي: أوه! بول، ارمِهِ بِكُراتٍ، أَتوسَّل إليكَ، حتَّى تَحمِلَه علَى النُّزول. سنُمسِكُ بِه وسنَحتَجِزُه.

بول: أودُّ ذلكَ، ولكنْ لا أعتَقد أَنَّه راغِبٌ في النُّزول.

وها هو بول وقد ذهَب يبحَث عنْ كُرةٍ كبيرةٍ ثمّ صوّبَها في كثيرٍ مِنَ المَهارةِ نحو السنجاب فأَصابَ رأسَه. نَزلَت الكرة

تَتدحرجُ وعلى أثرِها السِّنجابُ المِسكينُ؛ سقَط الاثنان أرضاً؛ اهتزّت الكُرةُ وعاوَدت الاهتزازَ، ولَكنَّ السِّنجابَ تَهشَّم وهو يَلمَس الأرضَ وظلَّ جُثّةً هامِدةً، مُضرَّج الرَّأس بالدّم، ومُهشَّمَ الأَصلابِ والأَطراف. رَكَضت صوفي وبول لانتِشالِه ولَكنَّهما ظَلاّ ذاهِليْن أمام الحيوان المِسكينِ الميِّت.

قالت صوفي: بول، أيُّها الشِّرِّيرُ، لقد تَسبَّبتَ في مَقتَل سِنجابي!

بول: إنَّها غَلطتُكِ، لِماذا أَردتِ أنْ أُنزِلهُ بتَصويبِ كُراتٍ نَحوَه؟

صوفي: كان يَجبُ علَيكَ إخافتُهُ لا قتلُه.

بول: ولكنِّي لم أكُن أُريدُ قتلَه؛ لقد أصابَته الكُرةُ، لم أكُنْ أَعتِقدُ أَنَّني ماهِرٌ إلى هذا الحدّ.

صوفي: أنتَ لستَ ماهِراً، أنتَ شرِّير. اُغرُبْ عن وجهي، إنِّي لم أَعُد أُحبُّك على الإطلاق.

بول: أمّا أنا، فإنِّي أَكرهُك. إنَّكِ أكثَر سَذاجةً مِنَ السِّنجاب. أنا فَخورٌ بأنِّي حُلْت بَينكِ وبين تَعذيبه.

صوفي: أنتَ ولدٌ سيِّئٌ، يا سيِّدُ. لنْ أَلعبَ معكَ البتَّة: لنْ أطلُبَ مِنكَ شيئاً أبداً.

بول. هذا أفضَلُ يا آنسةُ، لنْ أصيرَ إلاّ أَكثر هُدوءاً، ولنْ أكون مُلزَماً بأن أعصِرَ دِماغي كيْ أُساعِدَكِ على اقترافِ حَماقاتِك.

المربِّية: على رِسلِكما، يا ابنَيَّ، عِوضَ أنْ تتخاصَما، اعترِفا بِأنَّكما

تَصرّفتما أنتُما الاثنان دون رَوِيّةٍ وأنّكما كليكُما مُذنِبان تتَحمّلان جَريرةَ موتِ السِّنجاب. يا لِهَذا الحيوانِ المِسكينِ! على الأقلِّ هو الآن أكثرُ سعادةً مِمّا لَو كان على قَيد الحياةِ، لأنّه ما عاد يَتوجَّع. إنّني ذاهِبةٌ كي أُناديَ أحدَهُم حتّى يَنقُلَه ويرمي به في إحدى الحُفَر، وأنتِ، يا صوفي، اصعَدي إلى غُرفتِكِ وانقَعي إصبَعك في الماءِ؛ سأعملُ على اللَّحاق بك.

ذهبَت صوفي يَتبَعها بول، كان هذا الصّغير ولداً طيِّباً، لا يَحمِل ضغينةً، ذلكَ أنّه عِوضَ أنْ يُقاطِع صوفي فقد ساعَدها على صَبِّ الماء في آنِية وعلى أن تَنقَع يَدها. وعندما صعِدت المربّية، لفَّت إصبع صوفي في بَعض ورقاتٍ من الخَسِّ وخِرقةٍ صغيرة. كان الطِّفلان خَجِلَيْن عند دخولِهما إلى حجرة الاستقبالِ للعشاء، فقد اضطُرّا إلى قصِّ نِهاية مُغامرتِهما مع السِّنجاب.

سخِر منهُما أَبواهُما وأُمّاهُما. وأُعيدَ قَفصُ السِّنجابِ إلى المَخزَن. وظَلّت إصبَعُ صوفي تؤلِمها أيّاماً مَعدوداتٍ، لم تعُد بَعدها تَذكُرُ السِّنجابَ إلاّ كيْ تقولَ في نَفسِها إنّها لنْ يَكونَ لها سِنجابٌ أَبداً.

الفصل الثاني عشر

آنية الشّاي

كان اليومُ يومَ 19 من حزيران، وهو اليومُ الّذي وُلِدت فيه صوفي؛ كان عُمْرها أربعةَ أعوام. وكانت أمُّها تُقدِّمُ لها دائماً هَديّةً جَميلةً في مثل هذا اليوم، ولكنَّها ما كانت تُعلمها أبداً بما ستُهديه لها. كانت صوفي قد أفاقَت أَبْكَرَ مِنَ العادةِ؛ كانت قَد عَجّلَت بارتِداء مَلابِسها كيْ تَذهَب إلى أُمِّها لتَتسلَّم هَديَّتَها.

قالت صوفي: أَسرِعي، أَسرِعي، يا مُربيّتي، أَرجوكِ، بِي رَغبةٌ عارِمةٌ لِمَعرفَة ما ستُهديهِ أُمّي إليّ بِمناسبة عيدي!



المربِّية: لَكنِ أمهِليني حتّى أَمشّطَ لكِ شَعرك. لا يُمكنُكِ أنْ تَذهبي مُشعَّثةَ الشَّعر مِثلما أنتِ عليه الآن. أهكذا تستهلّين سنتَكِ الرّابعة...! استقيمي إذن واهدَئي، إنّكِ تتَحرَّكين على الدَّوام.

صوفي: آيْ، آيْ، إنَّكِ تقتَلعين شَعري، يا مُربِّيتي.

المربِّيةُ: لأنَّكِ تُديرينَ رَأسكِ في كلِّ الجِهاتِ؛ الآنَ مَرَّةً أُخرى! كيف لي أنْ أَحزُرَ إلى أيِّ جِهة يَحلو لكِ أنْ تُديري رأسكِ؟

وأَخيراً أُلبستْ صوفي ثيابَها، ومُشِّطَ شَعرُها، وأَمكن لها أنْ تَركُضَ نَحوَ أُمِّها.

قالت الأمُّ باسِمةً: ها أنتِ ذا مبكرّةٌ، يا صوفي، أَرى أنّكِ لم تَنسَيْ سنتَكِ الرّابعة والهَديّةَ الّتي أنا مَدينةٌ بها إليك. خُذي، هذا كتابٌ، ستَجدين فيه ما يُسلِّيك.

شكرت صوفي أمَّها وهي مُرتبكة، واستلمت الكتاب، وكان مجلّداً بغلافٍ أحمر اللّون.

فَكَّرت صوفي وهي تقولُ: ماذا أَصنَع بِهذا الكتاب؟ أنا لا أَعرِف القِراءة؛ بِماذا عَساه أنْ يُفيدَني؟

وكانت أمُّها تنظُرُ إليها وتَضحك. وقالت لها:

- لا تَبدين فرحةً بهديّتي، رغم أنّها هديّةٌ جميلةٌ جدّاً؛ وهناك مكتوبٌ عليها: الفُنون. أنا واثِقةٌ أنّها ستُسلِّيكِ أَكثرَ مِمّا تَتَصوَّرين.

صوفي: لَستُ أَدري، يا أُمّاه.

الأمُّ: افتَحيهِ، ستَرَيْن.

أرادَت صوفي أنْ تَفتح الكتاب؛ وفُوجِئت كثيراً عندما وَجدت نفسها غيرَ قادِرة على ذلكَ؛ وممّا زاد في دَهشتها أنَّه بِتدويرها الكتاب كان يَصدُر مِنْ داخله صَوتٌ غريب. نظَرت صوفي إلى أمِّها نِظرةً دَهِشة. فضحِكت السيّدة دو ريان أكثرَ وقالت لها:

- هذا كتابٌ خارِقٌ للعادةِ؛ إنّه ليس مِثلَ جميع الكتب الّتي تنفتِح مِنْ تِلقاء نفسها؛ هذا الكتابُ لا يَنفتِحُ إلاّ عندما نَضغَط بالإبهام على الوَسَط مِنْ حافّة الكتاب.

ضَغطت الأمّ قليلاً بالإبهام؛ فانفَتح الجُزءُ العُلويُّ، وشاهَدت صوفي وهي مَسرورة أنَّ الهديّة ليست كتاباً، بل هي عُلبة بديعة مِنَ الألوان، فيها رِيشاتُ الرَّسم، وأَوعيةٌ، واثنَتا عشرةَ كرّاسةً صغيرةَ الحَجم، ملأى بِصُوَر رائعة، مُهيَّأةٍ لأن تُرسَم.

فصاحت صوفي: أوه! شكراً لكِ، يا أمِّي الحبيبةَ، كَم أنا سعيدةٌ! ما أَجملَ هذا!

الأمُّ: لقد وَقعتِ في الفَخّ منذ حينٍ، عندما ظننتِ أنّني أُهديكِ كتاباً حقيقيّاً؛ ولكنّي ما كنتُ لأشاءَ أنْ أُوقِعَ بكِ في مثل هذه الوَرطة. يُمكنكِ أنْ تتسلَّيْ بالرّسم طيلةَ النّهار بصُحبةِ ابن خالتك بول وصديقتَيْكِ كاميليا ومادلين، لقد استدعيتُهما للحضور كي تُقضِّيا اليومَ في رِفقتكِ: ستجيئان في السّاعة الثّانية. لقد كلّفتني



خالتُك دوبير بأنْ أسلِّمكِ من جِهتها هذا الطّاقَمَ مِنْ آنيةِ الشّايِ؛ إنَّها لا تستَطيع القُدومَ إلاّ في السّاعة الثّالثة، وأرادت أنْ تتسلَّمي هديّتَها منذ الصّباح.

تناولتْ صوفي السّعيدةُ الطّبقَ المكوَّنَ من ستّة فناجين، وإبريق الشّاي، والسكّريّة، وإناء القشدة المَصنوع من الفِضّة. واستأذنت في عملِ شايٍ حقيقيٍّ لأصدِقائها.

فقالت لها السيِّدة دو ريان: لا، ستَصُبّون القشدة في كلّ مكانٍ، ستَحرِقون أنفسَكم بِواسطة الشّاي. تَظاهروا بأنّكم تتناولون

الشّايَ حقيقةً، وسيكون ذلك مُسلِّياً سَواءً بسواء.

لمْ تقُل صوفي شيئاً، ولكنَّها لمْ تكُن سعيدةً.

وقالت في نفسها: فيمَ تَصلُحُ لي عُدَّةُ المائدةِ إنْ لمْ أستَطع أنْ أَضع شيئاً فيها؟ سيَسخَر منِّي أصدقائي. يَجِب أنْ أَبحثَ عنْ شيءٍ لتَعبئة هذه الآنية. سأطلُب ذلك مِنْ مُربِّيتي.

أَعلَمت صوفي أمَّها أنّها ذاهِبةٌ لتُرِيَ مُربّيَتَها كُلَّ تلك الهدايا؛ حملَت عُلبَتها وآنيةَ الشّايِ وركَضَت نَحوَ غُرفتِها.

صوفي: خُذي، يا مربِّيتي، أُنظُري هذه الهدايا الجميلةَ الّتي أَعطَتْنِيها أُمِّي والعمّةُ دوبير.

المربِّية: يا لها مِنْ عُدّةٍ للمائدة جميلةٍ! ستتسلَّيْن بها كثيراً. ولكنِّي لا أُحبُّ كثيراً هذا الكتاب؛ بماذا سيُفيدك كتابٌ، بما أنّكِ لا تَعرفين القراءة؟

صوفي، ضاحِكةً: مَرحَى! ها هي مربِّيتي قد وقعت في الفخّ مثلي. ليس هذا كتاباً، إنّه علبة للألوان.

فَتحَت صوفي العُلبةَ، وقد وجدتها المربِّية جميلة. وبعد أنْ تحدّثت صوفي عمّا كانت ستَعملُهُ طيلةَ النّهارِ، قالت إنّها كانت تودّ أنْ توزِّع الشّاي على أصدقائها، غير أنّ أمّها لم تأذن لها في ذلك.

- ماذا سأضع في إبريقي، وفي سكّريّتي، وفي إناء القشدة؟ ألا

تستطيعين، يا مربِّيتي اللّطيفة العزيزة، مساعدتي قليلاً وإعطائي شيئاً ما يُمكن أنْ أقدِّمه طعاماً لأصدقائي؟

فأَجابت المُربِّية: كلاّ، يا صغيرتي المسكينة، هذا مُتعذِّر. تذكّري أنّ أُمّكِ أخبرتني أنّها ستَطرُدني إن أنا أَعطيتُكِ شيئاً تأكُلينَه بينما تكون هي قد نَهَت عَنه.

تنهَّدت صوفي وظلّت مُفكِّرةً؛ ثمّ أشرق مُحيّاها شيئاً فشيئاً، لقد خطرت لها فكرةٌ؛ سوف نرى إنْ كانت فكرةً جيِّدة. لعبت صوفي، ثمّ تغدّت؛ وعند أوبتها من النّزهة برفقةِ أمّها، قالت إنّها ستقوم بإعداد كلِّ شيء احتفالاً بقدوم أصدقائها. وضعت علبة الألوان على طاولة صغيرة. ونضَّدت على طاولة أخرى الفناجين السّتّةَ، ووضعت في الوسط السكّريّةَ وإبريق الشّاي وآنية القشدة.

وقالت: الآن، سأقوم بإعداد الشّاي.

تناولت إبريق الشّاي، وذهبت إلى الحديقة، فجنتْ قليلاً من ورق النّفلِ، وضعتها في الإبريق؛ وبعد ذلك ذهبت تَجلُب الماءَ من الصّحن الّذي يُصَبُّ مِنه لِكلبِ أُمِّها، وقامت بِصبِّ ذاك الماء في الإبريق.

وقالت بنبرة المُبتَهِج: ممتاز! ها هو الشّايُ، سأقوم الآنَ بإعداد القشدة.

ثمّ ذهبت تأخُذ قطعة من المادّة البيضاء الّتي كانت تُستَخدَم

في تنظيف الأواني الفضيّة؛ كَشَطت قليلاً منها بواسطة مُديتها الصّغيرة، وصبَّته في إناء القشدة، وقد ملأته بِالماء المخصّص لشرب الدّواجن، وحرّكته جيّداً بواسطة مِلعقةٍ صغيرةٍ، ولمّا أَصبح الماءُ أبيضَ ناصعاً، أعادت الإناء فوق الطّاولة، ولمْ يَبق لها سوى أنْ تملأ السكّريّة. تناولت طَبشورَ آنيةِ الفِضّة مرَّة أخرى، فقَطعت منه قِطعاً صغيرةً بواسطة سِكّينها، وملأت السكّريّة، الّتي وضَعتها فوق الطّاولة، ونَظرت إلى كلِّ ذلك نِظرة افتِتان.

قالت وهي تَفرُكُ يَديْها: هذا شايٌ فخمٌ؛ أرجو أنْ أكون صاحبة أفكارٍ باهرة! أُراهِن أنّه لا بُول ولا أَحَدَ مِنْ أصدقائي يُمكنُ أنْ يَخطُر ببالِهِ ابتِكارٌ يُماثِل ابتكاريَ الفريدَ...

انتَظرت صوفي أصدقاءها نصف ساعة أخرى، ولكنَّ القلق لم يُساورها؛ كانت فَرِحةً جدّاً بشايِها حتّى أنّها كانت لا تَرغب في الابتعاد عنه؛ كانت تتجوّلُ حول الطّاولة، وتنظُر إليها نِظرةً مرِحةً، وتَفرُكُ يديْها وهي تُردِّد:

- يا إلهيّ! يا لَفِكري الثّاقِبِ! يا لَفِكري الثّاقِبِ!

أخيراً وصل بول والصّديقتان. رَكضت صوفي في استقبالِهما، وقَبّلَتهم جميعاً ورافقتهم سريعاً إلى حجرة الاستقبال الصّغيرة كيْ تُرِيَهم أشياءها الجميلة. في البَدء أَوقَعَتهم عُلبةُ الألوانِ في فخِّها مثلما أَوقَعت مِنْ قَبلِهم صوفي ومُربِّيتَها. وَجَدوا الشّاي

لطيفاً ورغِبوا على الفور أنْ يَشرعوا في الأكل، إلاّ أنّ صوفي طَلبت مِنْهم أنْ يَنتظروا حتّى السّاعةِ الثّالثة. شَرَعَ جميعُهم، إذن، يَرسُمون الصُّورَ المَوجودَةَ في الكُتيِّباتِ: كان لِكُلِّ واحِدٍ مِنهُم كُتيِّبُه. وحينَما أفاضُوا في الاستِمتاع بعُلبةِ التَّلوينِ وتَمَّ تَرتيبُ كُلِّ شَيءٍ بِعنايةٍ صاح بول قائلاً:



- الآنَ، هيّا بِنا نتَناولُ الشّاي.

فردَّت الفَتياتُ الثّلاثُ مُجتَمعاتٍ: أَجَل، أَجَل، لِنتناولِ الشّاي.

كاميليا: هيّا، يا صوفي، قومي بالتَّشريفات.

صوفي: اجلسوا جميعاً حول الطّاولة... هنا، أحسنتم...

أَعطوني فناجينكم، حتّى أضع السكّر... الآنَ الشّاي،... ومن بَعد ذلك القشدة... اشربوا الآنَ.

مادلين: هذا غريبٌ، السكَّر لا يذوب.

صوفي: اخلِطي جيِّداً، وسيذوب.

بُول: ولكنّ شايَكِ بارِد.

صوفي: ذاكَ لأنّه أُعِدَّ مُنذُ وَقتٍ طويل.

ذاقت كاميليا الشّاي وردّتهُ في اشمئزاز: آه! يا للهول! ما هذا؟ هذا ليس بشاي!

مادلين وقد ردّت الشّاي بدورها: هذا كريه! إنّه ينشُرُ رائحة الطَّبْشور.

بول، وهو يَنفُثُ الشّايَ بِدَورِه: ما هذا الّذي سقيتنا إيّاه، يا صوفي؟ هذا كَريهٌ، هذا مُقزِّز!

صوفي، وهي مُرتبِكةٌ: تجدون ذلك؟...

بُول: كيف، ذلك؟ مِنَ الفظاعة أنْ توقعي بنا في مثل هذا المأزق! أنتِ تستَحقِّين أنْ نُجبِركِ على ابتلاع شايك البغيض هذا.

صوفي وقد اعتراها الغضب: إنّكم جميعاً مُشاكِسون فلا شيءَ يُمكِنُ أَنْ يبدو لكُم لذيذاً.

كاميليا مُبتَسِمةً: اعترفي، يا صوفي، أنّه، مِنْ دون أن نكون مُشاكِسين، يُمكن أنْ نجِد شايكِ رديئاً جدّاً.

مادلين: أمّا أنا، فإنّي لم أذُقْ في حياتي أبداً شيئاً أكثَرَ رداءةً مِنْ هذا الشّاي.

بُول وهو يُقدِّم إبريق الشّاي إلى صوفي: ابلَعي، إذن، ابلَعي: وستعلمين إن كنّا نحن مُشاكِسين.

صوفي، وقد أُسقِطَ في يدِها: دَعني، أنتَ تُضايقني.

بُول، مُتِمّاً كلامَه: آه! نحن مُشاكِسون! آه! تجدين شايك لذيذاً! اشرَبيه إذاً مع قشدتك.

كان بول، وهو يُمسِكُ بصوفي، قد صبّ لها الشّاي في فمها، وتهيّأ لأن يأتي الفعل نفسه معها في ما يخُصّ القشدة المزعومة، رغم صيحات صوفي وغَضبَتها. هُرِعت كاميليا ومادلين، وقد كانتا طيِّبتيْن جدّاً فأشفقتا عليها، نحو بول لانتزاع إناء القشدة منه. لكنّ بول، وقد كان ساخِطاً، دفعهما؛ فاستغلّت صوفي ذلك لتخلِّص نفسها مِنْ قبضته وتنقضّ عليه بقبضة يديها. عندئذٍ سعت كاميليا ومادلين إلى احتجاز صوفي؛ كان بول يصيح، وكانت صوفي تصرُخُ؛ وصارت كاميليا ومادلين تطلبان النّجدة، فكانت الجلبةُ أشبه بقطارٍ تصمّ جلبتُه الآذان. هُرِعت الأمّهاتُ وهنّ مُرتعِبات. وبِمَرآهنّ صمَتَ الأطفالُ كلُّهم وهم جامِدون.

سألت السيِّدةُ دو ريان في نبرة قلِقة حازِمة: ولكنْ ما هذا الّذي يحدث؟

ولا مِنْ مُجيب.

السيّدة دو فلورفيل: كاميليا، فسِّري لنا سبب هذه المعركة.

كاميليا: أُمّاه، مادلين وأنا لا نتعارك مع أحد.

السيّدة دو فلورفيل: كيف! أنتما لا تتعاركان؟ أنتِ تُمسكين يد صوفي، ومادلين تمسك بِبُول مِنْ رجله.

كاميليا: كان ذلك مِنْ أجل الحيلولةِ بينهما و... و... كي لا يلعبا بعنف.

السيّدة دو فلورفيل وكأنّها تبتَسمُ: أنْ يلعبا! أنتِ تُسمِّين هذا لعِباً!

السيّدة دو ريان: أرى أنّ صوفي وبُول هما اللّذان يتعاركان، مثلما هي العادةُ؛ أمّا كاميليا ومادلين فكانتا تريدان منعَهما مِنْ أنْ يتعاركا. لقد تكهّنتُ بما جرى، أليس كذلك يا صغيرتي كاميليا؟

كاميليا، في همس وقد احمرَّت خَجلاً: نعم، يا سيّدتي.

السيِّدةُ دوبير: أَلستَ خَجلاَنَ، يا سيِّدُ بُول، مِنْ سلوكك هذا؟ تغضبُ مِنْ لا شيء، ومُتأهِّبٌ للعِراك...

بُول: ليس الأمر جرّاء لا شيء، يا أمِّي؛ لقد أرادت صوفي أنْ تسقيَنا شاياً كريهاً جدّاً وعندما ذُقناه تسبّبت لنا في أوجاع، وحين تشكّينا من ذلكَ، قالت إنّنا مُشاكِسون.

تناولت السيّدة دو رِيان إناء القشدة، وشمّته، وذاقت من

ما فيه بطرف لسانها، فقطّبت وجهَها مُعبِّرةً عن تقزُّزها وقالت لصوفي:

- مِنْ أين حصلتِ على هذا الشّيء المَهول الّذي تزعُمين أنّه قشدة، يا آنسة؟

صوفي، وقد طأطأت رأسها وغمرها خجل شديد: إنِّي قد أعددتها بنفسي، يا أمِّي.

السيِّدةُ دو ريان: أنتِ أعددتها! وبماذا؟... أجيبي.

صوفي، وهي على نفسِ الحال: بالمادّةِ البيضاءِ الّتي ننظِّف بها أواني الفضّة وماء الشُّرب المخصَّص للدّواجن.

السيِّدةُ دو ريان وهي تتفحّصُ السكّريّةَ: إنها حقاً وليمة لأصدقائكِ! ماء مُلوَّثٌ، وطبشور! إنّكِ تَبدئينَ سنتكِ الرّابعةَ بِدايةً جيِّدةً، يا آنِسةُ: بِسبب عصيانكِ وقد نَهيتُكِ عن إعداد الشّاي، وبسبب رَغبتكِ في جعل أصدقائك يشربون شاياً مغشوشاً كريهاً، وبسبب تشاجرك مع ابن خالتك، سأستعيدُ عُدّة مائدتك، حتّى أحُول بينك وبين المعاودة. يَجدُرُ بي أنْ أرسلك تتعشَّيْن في غرفتك، لولا أنّي أخشى أنْ أُفسِدَ مُتعةَ صديقتيْكِ الصّغيرتيْن، فهما طيّبتان جدّاً وقد تتألّمان ممّا قد يلحقُكِ من عقاب.

انصرَفت الأمّهاتُ ضاحِكاتٍ رَغماً عنهنّ من الوَليمةِ المضحكة وما صنعت صوفي. بقي الأطفال وحدهم؛ لم يجرؤ بول

وصوفي، الخجِلان من عراكهما، على أن ينظر أحدهما إلى الآخر. وكانت كاميليا ومادلين تقبّلانهما، وتواسيانهما وتسعيان إلى المصالحة بينهما. وقبّلت صوفي بول، وطلبت العفو من الجميع، ونُسي كلّ شيء. جروا في الحديقة، حيث اصطادوا ثماني فراشات فاتناتٍ، وَضَعها بُول في عُلبة كان غِطاؤها من البلَّور. أمّا بقيّةُ ما بعد الظّهر فأُمضِيَتْ في ترتيب العلبة، حتّى تتَمتَّع الفَراشاتُ بإقامةٍ مُريحةٍ؛ وُضع لها العشبُ، والأزهارُ، وقطراتٌ من الماء السكّريِّ، وفراولاتٌ، وحبّاتُ مُلوك. وعندما جاء المساءُ، واستطاع كلُّ واحد الانصرافَ، حَمَل بول علبة الفراشات، وسط دَعواتِ صوفي، كاميليا ومادلين، اللاّئي رأَين أنّه كان راغباً في أن يحملَها معه.

الفصل الثالث عشر

الذِّئاب

لم تكن صوفي مُطيعةً جدّاً، هذا ما عاينّاه جيّداً في القصص الّتي كنّا بصدد قراءتها؛ كان ينبغي عليها أن تتأدّب، ولكنّها لم تبلغ ذلك بَعدُ: بل مازالت عُرضَةً لمصائب أخرى.

في اليوم التّالي لليوم الّذي بلغت فيه صوفي أربعة أعوام، نادتها أُمُّها وقالت لها:

- صوفي، لقد وعدتُكِ أنّه عندما تبلُغين أربعة أعوام سترافقينني في القيام بجولاتي المسائيّةِ الكُبرى. سأرحل للذّهاب إلى ضيعة «سفيتين» مروراً عبر الغابة؛ ستجيئين معي؛ اِحرصي فقط على ألاّ تتّخذي مكاناً في الخلف؛ تعلمين أنّني أسير مُسرِعةً، وإذا ما توقّفتِ يمكن أن تبقيْ بعيدة في المؤخَّرة قبل أن أتفطّن أنا إلى ذلك.

كانت صوفي مُبتهجةً بالقيام بهذه الجولة الكبيرة، ووَعَدت أمَّها بِأَن تسيرَ بِقُرْبها وألاّ تَترُكَ نَفسَها تَضيعُ في الغابة.

طلب بول الّذي جاء لتوِّهِ أن يُرافقهما، وسطَ فرحةِ صوفي العارِمة.

مشيا بتعقّل بعض الوقت وراء السيّدة دو ريان؛ وتلهّيا

بمشاهدة بعض الكلاب الضّخمة، الّتي تجلبها السيّدة دائماً معها، وهي تجري وتقفز.

ولّما وصل الطّفلان إلى الغابة قَطفا بعض الأزهار الّتي كانت في طريقهما، ولكنّهما قطفاها دون أن يتوقّفا.

لَمحت صوفي قريباً جدّاً من الطّريق عدداً وافراً من شجر الفراولة مملوءةً ثمراً.

فصاحت قائلةً: الفراولة الجميلة! إنّه لأمر مؤسف ألاّ نستطيع أَنْ نأكل منها!

سمعت السّيّدة دو ريان تعجّب صوفي، ونَهتْها مرّة أخرى، وهي تَلتفِت، عن التّوقّف.

تنهّدت صوفي ونظرت بعينٍ آسفةٍ إلى الفراولة اليانعة الّتي كانت هي تَشتهيها بشدّة.

قال لها بول: لا تنظُري إليها ثانيةً حتّى تَنسَيها.

صوفي: إنّها حمراءُ فاقِعةٌ، وجميلةٌ جدّاً، إنّها ناضِجةٌ كُلَّ النُّضجِ، لا بُدَّ أن تكون لذيذةً جِدّاً.

بول: كلّما نظرتِ إليها أكثر، كانت رغبتُكِ فيها أشدّ. وما دامت خالتي قد نهتكِ عن جَنْيِها، فماذا يُجدي نظرك إليها؟

صوفي: إنِّي أرغب في أن آخذ منها واحدةً فحَسبُ: هذا لن يُؤخِّرني كثيراً. ابقَ معي، سنأكل منها معاً.

بول: لا، لا أريد أن أَعصي أمر خالتي، ولا أُريدُ أنْ أتيه في الغابة.

صوفي: ولكنْ ليس هناك مِنْ خطر. ترى جيِّداً أنّ أُمِّي تقول ذلك لإخافتنا؛ وسنعرف جيِّداً كيف نَعثُر على طريقنا إنْ نحن تخلَّفنا.

بول: لكنّ الغاب كثيف الشّجر، ويُمكِن يقيناً ألاّ نَعثُر على طريقنا!

صوفي: اِفعَلْ كما تشاءُ، أيُّها الجبانُ، عند أوّل موضع للفراولة الشّبيهة بتلك الّتي كنّا رأينا، سأتوقّفُ أنا لآكل بعضاً منها.

بول: أنا لستُ جباناً، يا آنسةُ، أمّا أنتِ، فعاقّةٌ وشَرِهةٌ: تِيهي في الغابة إن شئتِ؛ أنا أُفضِّلُ أَنْ أُطيعَ خالتي.

واصل بُول مُتابعة السيّدة دو ريان، الّتي كانت تُسرع الخطى دون أنْ تلتفت. كانت كلابها تحيط بها وتمشي أمامها ووراءها. وسرعان ما أَبصرَت صوفي مَوضعاً جديداً لشجر الفراولة الجميل مثله مثل الشّجر الأوّل؛ فأكلت ثَمرةً واحدةً، فوجدتها لذيذةً، ثمّ ثانيةً، ثمّ ثالثةً؛ وجلست على رُكبتيْها حتّى تَجنِيَ الثِّمار بسرعة كما يحلو لها. وبين الفينة والفينة كانت تُلقي نظرة إلى أُمِّها وإلى بول، اللّذيْن كانا يبتعدان. كانت الكلابُ تبدو قلقة؛ كانت تَغدُو نحو الغاب ثمّ تروح؛ ثمّ انتهت إلى أن تقترب كثيراً من





السيِّدةِ دو رِيان، ممّا دفع هذه الأخيرةَ إلى أنْ تنظر في ما يسبِّبُ فزعها، وأبصرت في الغابة، خللَ الأوراق، عيوناً برّاقةً شرِسة. وسمعت في الآن نفسه صوتَ أغصان متكسِّرة، وورقٍ جافّ. وما إن التفتت لتوصي الطِّفلَيْن بالسَّيْر أَمامها، حتّى ارتاعت منْ مشاهدتها بول فحسبُ.

فصرخت قائلة: أين صوفي؟

بول: أرادت البقاء في الخلف كي تأكل من الفراولة، يا خالتي.

السيّدة دو ريان: يا لها من فتاة عنيدة! ماذا اقترفت هذه المرّة؟ إنّ الذّئاب تتبعنا. لنعُد مِنْ أجل أنْ نُنقذها، إنْ لم يكن قد فات الأوان!

ركضت السيِّدة دو رِيان، تتبعها كلابها وبُول المسكين مذعوراً، نحو الموقع الّذي ينبغي أن تكون صوفي قد تخلّفت فيه؛ شاهَدَتها مِنْ بعيدٍ وسط شجر الفراولة، وهي تأكل مِنْ ثمرها خالِيَةَ البال. وفجأةً أَطلق كلبان مِنْ الكلاب عواءً باكياً وحادّاً وجرَيا بأقصى سرعتهما نحو صوفي. في الوقت نفسه أطلّ ذئب ضخمٌ، ذو عينيْن متوقِّدتيْن، وشَدقٍ مَفتوحٍ، برأسه من بين الأشجار في حذر. ولمّا رأى الكلاب تطارده، تردّد بُرهة؛ وظنّاً منه أنّ لديه ما يكفي من الوقت قبل وصول الكلاب لاختطاف صوفي إلى الغاب

والتهامها بعد ذلك، وثب وَثبةً خارِقةً وانقضّ عليها. ولمّا رأت الكلابُ الخَطرَ مُحدِقاً بسيِّدتهم الصّغيرة، وقد أُثيرت بصرخات الذُّعر المنبعثة من السيّدة دو ريان وبول، ضاعفت مِنْ سرعتها وانقضّت على الذِّئبِ في الوقت الّذي أمسك فيه بتلابيب صوفي ليجُرَّها إلى الغابة. وما إن أحسّ الذّئبُ بالكلاب قد عَضَّته حتّى أطلق سراح صوفي وشرع يخوض ضدّها غِمارَ معركةٍ ضارِية! وأصبح وضع الكلاب حرِجاً لِلغايةِ بعد وصول الذِّئبيْن الآخريْن اللّذيْن اقتفيا آثار السيّدة دو رِيان وهُرِعا بدورهما؛ إلاّ أنّ الكلاب قاتلت بِبَسالة ممّا أَجبر الذّئاب الثّلاثة على الفرار سريعاً. وجاءت الكلاب المُضرَّجة بالدّم والجروح تَلعَق أيدي السيّدة دو ريان والطّفليْن، الّذين ظلّوا جميعهم يرتعدون أثناء القتال. ردّت السيِّدة دو رِيان على مداعبات الكلاب بمداعبات مِثلِها، واستأنفت السّير، وهي تحمل كلا الطّفليْن من اليد ويحيط بها حُماتُها الشُّجعان.

لم تقُل السيِّدة دو رِيان شيئاً لصوفي، فقد كانت هذه تجد مَشقَّةً في المَشي، كانت رجلاها ترتعشان من أثر الذّعر الّذي اعتراها. وكان بول المسكين شاحب الوجه، مُرتعداً مثله مثل صوفي تقريباً. وخرجوا أخيراً من الغابة ووصلوا قرب جدول.

قالت السيِّدة دو رِيان: لنتوّقف هنا، ولنشرب جميعاً قليلاً من

هذا الماء العذب، الّذي نحتاج إليه حتّى نُشفى من الرّعب الّذي أصابنا.

شَربت السيِّدةُ دو رِيان، وقد انحنت في اتّجاه الجدول، بعض جرعات ورشّت الماء على وجهها ويديْها. وصنع الطّفلان مثلَ صنيعها؛ وقامت السيِّدةُ دو رِيان ببلّ رأسيْهما بالماء البارد. فشعر الطِّفلان بالانتعاش، وسَكَن ارتجافُهما.

وكانت الكِلابُ المِسكينةُ قد ارتمت جميعُها في الماء؛ كانت تشرب، وتغسل جراحها، وتتقلَّب في الجدول؛ ثمّ تخرُج من حمّامها نظيفةً مُنتعِشة.

وبعد ربع ساعة، نهضت السيّدة دو رِيان كي تنصرف. وسار الطِّفلان بجانبها.

قالت: صوفي، ألا تعتقدين أنّني كنت على حقٍّ عندما نهيتُك عن التّوقّف؟

صوفي: أوه نعم! يا أمّاه؛ ألتمِسُ منكِ العفو على عصياني لأوامرك؛ وأنتَ، كم أنت طيّب يا بول، إنّي مُغضَبةٌ كثيراً على نعتي لك بالجبان.

السيّدة دو رِيان: جبانٌ! هل نَعتِّه بالجبان! هل تعلمين أنّنا حينما ركضنا نحوك، كان هو الّذي يركض قُدّامي؟ هل رأيت أنّه، عندما قدِمتْ بقيّة الذّئاب في نجدة رفيقها، كان بول، المتسلِّح

بعصاً كان التقطها وهو يركض، قد اندفع مُجابِهاً لها حتّى يعوقها عن المرور، وأنّه أنا من توجّب عليّ أن أحمله بين يديَّ وأنْ أُبقيه قريباً منّي حتّى أمنعه من الذّهاب في نجدة الكلاب؟ ألم تلاحظي كذلك أنّه، أثناء القتال كلِّه، كان قد انتصب على الدّوام أمامكِ حتّى يعوق الذِّئاب عن الوصول إلينا؟ اُنظري إنْ كان بول جباناً!

ارتمت صوفي على رقبة بول وقبّلته عشر مرّاتٍ وهي تقول له: شكراً، يا عزيزي بول، سأُحبّكَ على الدّوام من كلِّ قلبي.

عندما وصلوا إلى المنزل، دُهِش الجميعُ من وُجوههم المتقِعة ومن فستان صوفي الممزَّقِ بأسنان الذِّئب.

حكت السيِّدة دو رِيان مغامرتَهم المُرعِبة فأثنى الجميع على بول كثيراً لِقاءَ طاعتِه وشجاعته، وألقى الجميع باللاّئمة على صوفي بِسبب عصيانِها وشَرَهِها، وأُعجِبوا بِبَسالةِ الكِلابِ، الّتي تمَّت مُداعبتُها ونالت عَشاءً مُمتازاً مِنْ عِظامٍ ومِنْ بقايا اللَّحم.

في اليوم التّالي، أهدت السيِّدة دو رِيان إلى بول لباس الجُنديّ الشّجاع كامِلاً؛ اِرتداه بول على الفور، وقد طار من الفرح، ودخل عند صوفي؛ فأَطلَقت هذه صَرخةَ فَزَعٍ وهي تُشاهد تُركِيّاً يدخل وقد غطّى رأسه بعِمامةٍ، ماسِكاً بِسيفٍ في يده، ومُتزنِّراً بِمُسدّسات. أَغرق بول في الضَّحك وفي القفز، فقد تعرّفت عليه صوفي ووجدته في لباسه العسكريِّ لطيفاً.



لمْ تَنل صوفي عِقاباً جزاءَ عصيانِها أوامرَ أمّها. لقد فَكّرت أُمُّها أنّها قد نالت ما فيه الكفاية بما أصابها من الهلع، وأنَّها لنْ تُعيدَ الكَرَّةَ ثانيةً.

الفصل الرّابع عشر
الخَدُّ المَخدوش

كانت صوفي غضوباً؛ وهذا عيبٌ جديدٌ لم نتحدّث عنه بعدُ.

ذات يوم كانت تتسلّى بالرّسم في إحدى كرّاسات التّصوير الصّغيرة، بينما كان ابن خالتها بول يقتطع بطاقات ليصنع منها سِلالاً للسّلَطَة، وطاولات ومقاعد. وكان كلاهما جالساً إلى طاولة صغيرة يواجه الواحد منهما الآخر؛ وكان بول، وهو يُحرِّكُ ساقيْه يقوم بقلقلة الطّاولة.

فخاطبته صوفي في هيئة من عِيلَ صبرُها: كُن حذِراً، أنت تدفع الطّاولةَ، أنا لا أستطيع أن أرسُم.

اِحترسَ بول بعض دقائق، ثمّ نسِيَ وأعاد تحريك الطّاولة.

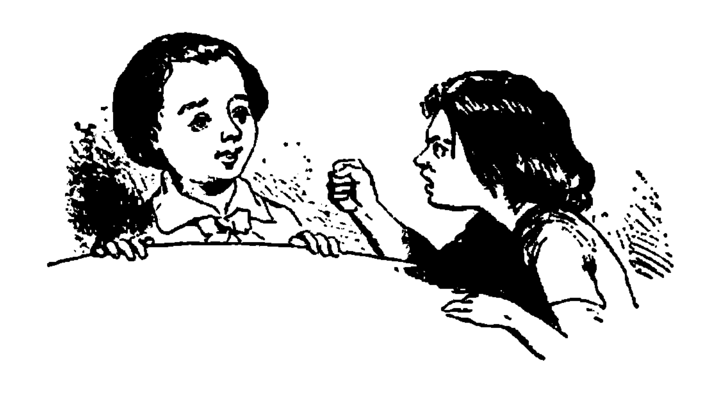
فصاحت صوفي به قائلةً: أنتَ لا تطاقُ، يا بول! سبق أنْ قلت لكَ إنّك تعيقني عن الرّسم.

بول: آه عجباً! مِنْ أجل الأشياء الجميلة التي تقومين بها، لا داعِيَ إلى أن تتضايقي.

صوفي: إنّي أعلم جيِّداً أنّك لا تجد حرَجاً في القيام بكلّ ما يحلو لكَ أن تقوم به؛ لكنْ ما دمتَ تزعجني، فأنا أرجو منكَ أن تُبقي ساقيْكَ هادئتيْن.

فردّ بول بنَبرةٍ ساخِرةٍ: لا تُحبُّ ساقاي أن تظلاَّ هادئتيْن، إنّهما تتحرّكان على كُرهٍ منِّي.

صوفي، غاضبةً: سأشدُّ وثاق ساقيْكَ المزعجتيْن بخيطٍ؛ وإن تماديت في تحريكهما فسأقوم بطردك.



بول: حاولي إذاً؛ وستعلمين ما تقدِر على عملِه هاتان القَدمان اللَّتان هما في طَرَفِ ساقيَّ.

صوفي: أتُقدِمُ على إيذائي بركلاتٍ مِنْ رجلك، أيّها الشّرّير؟

بول: طبعاً، هذا أكيد، إن أنتِ آذيتِني بلكماتٍ من قبضة يديك.

رشّت صوفي، وقد تملّكها الغضب، الماءَ على وجه بول، الّذي ساوره الغضب بدوره، فركلَ الطّاولة وقلَبَ كلّ ما كان فوقها.

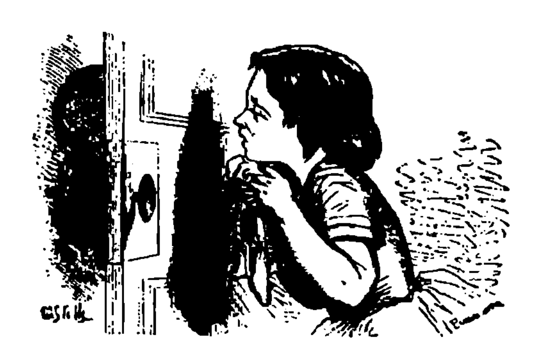
انقضّت صوفي على بول وخدشَت وجهه خدشاً شديداً، ما جعل الدّم يسيلُ من خدِّه. صرخ بول؛ ولكنّ صوفي، الّتي استشاطت غضباً، واصلت إصابته لطماً ولكْماً. كان بول لا يطيقُ ضرب صوفي، فهرب نحو غرفةٍ وانزوى فيها. ولم تنفكّ صوفي تقرع الباب، لكنّ بول لا يفتحه. وآل الحال بها إلى أن تهدأ. ولمّا سكن غضبُها، بدأ يساورها النّدمُ على ما اقترفتْ؛ تذكّرت أنّ بول خاطر بحياته من أجل أن يحميها من الذّئاب.



فكّرت قائلةً: يا لَبُول المسكين! كم كنت شرّيرةً تُجاهه! ما العمل حتّى لا يكون ساخطاً أبداً؟ لا أريد أن ألتمس العفو؛ كم هو مُضجِرٌ أن تقول: سامحْني ... وأضافت بعد أنْ فكَّرتْ بُرهةً: رغم ذلك، فإنّه أبعثُ على الشّعور بالخِزيِ أن يكون الشّخص شرِّيراً! وكيف السّبيل إلى أن يسامحني بول، إن أنا لم ألتمس العَفوَ

منه؟

وبعد أن أعملت صوفي فكرها قليلاً، نهضت، وذهبت تطرق باب الغرفة حيث كان بول قد اختبأ، ولكنّها لم تفعل ذلك هذه المرّة بغضب، ولا بقرع البابِ بضرباتٍ قويّةٍ بقبضة يديْها، بل بهدوء؛ إذ نادت بصوت مهذّب غاية التّهذيب: بول، يا بول! ولكنّ بول لا يُجيب. فأضافت، دائماً في صوت رقيق: بول، عزيزي بول، سامحْني، لقد اغتظتُ كثيراً فقد كنتُ شرِّيرة. أؤكِّدُ لكَ، يا بول، أنّني لن أعيد الكَرّة.



فُتِح البابُ رُويداً، رُويداً، وظهر رأس بول. نظر إلى صوفي مُرتاباً، وخاطبها قائلاً:

- أَلَم تعودي غاضِبةً؟ حقّاً؟

فأجابته صوفي: أوه لا! لا، طبعاً، يا بول العزيز، أنا حزينة جدّاً لأنِّي كنتُ شرِّيرة.

فَتح بول الباب فتحاً كاملاً، ورفعت صوفي بصرها، فرأت وَجه بول مَخدوشاً كُلَّه؛ فأطلقت صيحةً وارتمت على عُنقه.

- أوه! يا لَبول المسكين، كم ألحقتُ بِكَ من الضَّرر! كم خدشتُكَ! ما العمل حتّى أُشفيَك؟

أجاب بول: سيكون الأمر بسيطاً، ستلتئم الجروح وحدها. لنبحث عن طستِ ماءٍ كي أغتسل. وعندما يزول الدّم لن يعود هناك شيءٌ البتّة.

جرت صوفي صُحبةَ بول للبحث عن طستٍ مَملوءٍ ماءً؛ فكان الطِّفل يبُلّ وجهه في الحَوض، ويفرُكه ويمسحُه، غير أنّ آثار الأظافرِ ظلّت دائماً على الخدّ. وكانت صوفي مُتأسِّفة.

قالت: ماذا ستقول أُمِّي؟ ستغضبُ منّي وستُعاقِبُني.

تأسّف بول بدوره، وقد كان طيِّباً جدّاً، كان لا يدَّخِر جهداً في تَصوّر حلٍّ كي لا تُوبَّخَ صوفي.

قال: لا يُمكِنُ أن أزعُم أنّني سقطتُ في الأشواكِ، لأنّ ذلك سيكون غير حقيقيّ... ولكنْ... انتظري إذاً؛ سترَيْن.

ها هو بول ينصرف وهو يركُض؛ تتبعه صوفي؛ دخلا إلى أكَمةٍ قرب المنزل؛ ثمّ اتّجه بول نحو دَغل شائكٍ، وارتمى داخله وتقلَّب

على نَحوٍ يُظهِر الوَجهَ مغروزاً ومخدوشاً بأطراف الورقات. ونهض مخدوشاً أكثر ممّا كان عليه من قبلُ.



وعندما رأت صوفي هذا الوجه المسكين ينزفُ كُلُّه، تأسّفت، وطفِقت تبكي.

قالت: أنا السببُ في كلّ ما يُؤلمكَ، أيها المسكين! كيْ لا أكون عُرضةً للعقابِ تخدِشُ أنت نفسكَ أكثرَ ممّا فعلتُه أنا بكَ في فورة غضبي. أوه! يا بول العزيز! ما أشدّ طيبتكَ! كم أُحبّكَ!

قال بول: هيّا بنا سريعاً إلى المنزل حتّى أَغسل وجهي مرّة أخرى. لا تَظهري في مَظهر الحزينة، يا صوفي المسكينة. أُؤكّد لك أنّني لا أتألّمُ إلاّ قليلاً؛ غداً سيمضي كلُّ هذا الألم. ما أطلبه منكِ فحسبُ، هو أنْ لا تذكُري أنّكِ خدشتني؛ وإن أنتِ ذكرتِ ذلكَ سأكون حزيناً جدّاً ولن أنال مُكافأةً لقاء إبَر الشّوك. هل تعدينني بذلك؟

أجابت صوفي وهي تُقبِّله: نعم، سأعملُ كلّ ما تُريد.

دخلا إلى غرفتها، وعاد بول يَغمِسُ وجهَه في الماء.

عندما جازا إلى غرفة الاستقبال، أطلقت الأمّهاتُ اللاّتي كنّ حاضراتٍ صيحةَ فزع حينما رأين وجه بول المسكين مخدوشاً مُنتفِخاً.

وسألته السيِّدة دو بار: أين تسبّبتَ لنفسكَ بِمثل هذه الهيئة المُزرية؟ أيّها المسكين، كأنّكَ تقلّبتَ في الأشواك؟

بول: هذا تحديداً ما جرى لي، يا أمّي. بينما كنت أركضُ، سقطتُ في دَغلٍ من الأشواكِ، وعندما كنتُ أتخبَّطُ كيْ أَتمكَّن مِنَ النّهوض، خدشتُ وجهي ويديّ.

السيّدة دوبير: أنت حقّاً فتىً أَرعنُ لسقوطك في هذا الشَّوك. ما كان يَنبغي لكَ أن تتخبّط، بل كان عليك أن تنهض ببطء.

السيّدة دو رِيان: أين كنتِ حينئذ يا صوفي؟ كان يَجدُر بكِ

مساعدته على النّهوض.

بول: كانت تركض ورائي، يا خالتي؛ لم تجد الوقت الكافي لمدّ يد المساعدة؛ وعندما وصلتْ، كنتُ قد نهضتُ.

حملت السيّدةُ دوبير بول لتضع فوق خدوشه مَرهماً مِنْ خُلاصةِ الخِيار.

وبقيتْ صوفي مع أمِّها، الّتي كانت تتفرّسُ فيها بعناية.

السيّدة دو رِيان: لماذا أنتِ حزينة يا صوفي؟

صوفي، وقد احمرّ وجهُها خجلاً: لستُ حزينةً يا أمِّي.

السيّدة دو رِيان: بلى، أنتِ حزينة وقلقة، كأنّ بكِ شيئاً يُؤلمك.

صوفي، وقد اغرَوْرَقت عيناها بالدّموع وارتعش صوتُها: لا شيء، يا أُمِّي، لا شيء.

السيّدة دو رِيان: ترَيْنَ جيِّداً أنّكِ على وشَكِ البُكاء حتّى وأنتِ تزعُمين أنّه ما بكِ مِنْ شيء.

صوفي، وقد انفجرت باكِيةً: لا أستطيع... أنْ... أُخبرك... فأنا... قد وعدتُ... بول.

السيّدة دو رِيان، وهي تجتذب صوفي إليها: اسمعي، يا صوفي، إن كان بول قد ارتكب أيَّ حماقةٍ، فإنّه لا يتوجّبُ عليكِ الإيفاءُ بوعدكِ له أنْ لا تُخبِريني بِشيء. أنا، بنَفسي، أعدُكِ بأنّني لن أُوبِّخ بول، وأنّني لن أخبِر بذلكَ والدتَه؛ ولكنّي أُريد أنْ أعرف ما

يجعلكِ حزينةً جدّاً، وما يجعلُكِ تبكين بحُرقةٍ، ويجب عليكِ أنْ تُخبريني بالأمر.

دسّت صوفي وجهها بين ركبتيْ السيّدة دو رِيان، وأغرقت في البكاء حتّى صارت عاجزةً عن الكلام.

بَحثَت السيّدة دو رِيان عن سبيل للتّسكينِ مِنْ رَوْعها، وتشجيعها، وأخيراً نطقت صوفي قائلةً:

- لم يرتكِب بول أيَّ عملٍ شائِنٍ، يا أُمّاه؛ إنّه، بِخلاف ذلكَ، طيِّبٌ جدّاً، وقد بدرَ منه عَملٌ نبيلٌ؛ أنا فقط من كانت شرّيرةً، وإنّه مِنْ أجل أنْ يَحول بيني وبين أَنْ أتعرَّضَ للتّوبيخِ ألقى بنفسه في شجر الشّوك.

استجْوَبت السيّدة دو رِيان، وقد تضاعفت دهشتها، ابنتَها صوفي، فأَخبرَتها بِكلِّ ما جَرى بينَها وبَينَ بُول.

ثمّ صاحت السيّدة دو رِيان قائلةً: ممتازٌ هذا الفتى الصغير! ما أطيبَ القلبَ الّذي بين جوانحِه! ما أقوى شجاعته وما أنْبَلَ قلبه! وأنتِ، أيّتُها الشقيّة، ما أشدّ الاختلافَ بينكِ وبين ابن خالتك! أُنظُري ما أشدَّ انقيادَكِ إلى سَوْراتِ غضبكِ، وما أقوى جُحودَكِ تُجاهَ بول الممتاز هذا الذي يَصفَح عنكِ على الدّوام، وهو مَن يتناسى دوماً ظلمَكِ له، ومَن كان اليومَ أوسع كَرماً في تعامله معك.

صوفي: أوه أجل! يا أُمّاه، أرى كلّ هذا جيِّداً، ولن أتخاصم مع بول أبداً، في المُستقبل.

السيّدة دو رِيان: لن أزيدَ إلى تأنيب ضميركِ أيَّ تأنيبٍ، ولا أيَّ عِقاب. أنتِ تتألّمين بسبب ما ألحقتِ ببول مِن أذىً، وتلكَ هي عقوبتُكِ: سينفعكِ ذلك أكثرَ من أيِّ عقوبةٍ أخرى قد تُسَلّط عليك. لقد كنتِ صادِقةً، واعترفتِ بكلِّ شيء بينما كان بإمكانكِ إخفاء كلِّ شيءٍ: هذا حسنٌ للغايةِ، سأَصفَحُ عنكِ لصَراحتك.

الفصل الخامس عشر

إليزَابَيت

كانت صوفي يوماً جالِسةً على كرسيّها الصّغير؛ لم تكن تفعل شيئاً، وكانت تفكّر.

سألتها أمّها قائلةً: فيمَ تُفكّرين؟

صوفي: أفكّرُ بإليزابيت شينو، يا أمّي.

السيِّدة دو رِيان: ولماذا أنتِ تُفكّرين بها؟

صوفي: ذلكَ أنّي لاحظتُ بالأمسِ خدشاً كبيراً أصاب يدها، ولّما سألتُها كيف انخدشت يدُها، احمرَّ وجهُها خجلاً، وخبّأت يدها، وقالت لي في همسٍ: اصمُتي؛ كان هذا لمعاقبتي. أودُّ أن أفهم ما كانت تريد قوله لي.

السيِّدة دو رِيان: سأفسِّرُ لكِ الأمرَ، إن شئتِ، لأنّني، أنا أيضاً، قد لاحظتُ ذاكَ الخَدَشَ، وقد روت لي أمّها كيف أصابت نفسها به. أنصتي جيّداً؛ هذه من المآثر الجميلة لإليزابيت.

قرّبت صوفي، وقد ابتهجت بالعثور على حكاية تسمعها، كرسيّها الصّغير من أمّها حتّى تقدر على الإنصات.

السيِّدة دو رِيان: تعلمين أنّ إليزابيت طيِّبةٌ جدّاً، لكنّها مع الأسف الشّديد فتاةٌ غضوبٌ أحياناً (غَضَّت صوفي طَرْفَها)؛ بل

إنّه يحدُث لها أن تَضرِب مُربِّيَتَها خلال سوْرَات غضبها ثمّ تتأسّف
بعد ذلك. فعوضَ أن تفكّر قبلَ إتيان فِعلتِها فإنّها تفكّر بعد القيام
بها. قبل الأمس كانت تكوي فستان دميتها وباقي ثيابِها؛ وكانت
المربّية تتولّى تَسخِين المكواةِ خشيةَ أن تحرق إليزابيت نفسَها. إلاّ أنّ
إليزابيت اغتاظتْ من عَدَم السّماحِ لها بتسخِينها بِنَفْسِها؛ وكانت
مُربّيتها قد نَهَتْها عن ذلك، لا بَلْ كانت تمنعها في كلّ مرّةٍ أرادت



فيها وضع مِكواتها في النّار دون أن تقول لها شيئاً. وفي الأخير وجدت طريقةً للوصولِ إلى الموقد، وذهبت لتضعَ مِكواتها. لمّا أبصرتها المربِّية، سحبتْ منها المكواةَ وقالت لها: «بما أنّكِ لا تُصغين إليَّ، يا إليزابيت، فإنّكِ لن تَكوي الثِّيابَ البتّة؛ سآخذ المَكاويَ وسأُرجعها إلى الخزانة». فصاحت بها إليزابيت: «أُريدُ مِكواتي، أُريدُ مِكواتي!»، فردّت المربيّة: «لا، يا آنسة، لن تناليها». فقالت إليزابيت غاضِبةً: «يا لُويز الشِّرّيرة، أَعيدي إليّ مِكواتي». فأضافت لُويز، وقد جَذبتْ مفتاح الخزانة: «لن تحصُلي عليها؛ ها قد أَوصدتُ عليها الأبواب». أرادت إليزابيت، وقد استشاطت غضباً، أن تنتزع المفتاح من بين يديْ مُربِّيتها، غير أنّها لم تُفلِح في ذلك. عندئذٍ خدشتْها بقسوةٍ، وهي في فورةِ الغضب، حتّى أنّ يد لُويز المَجروحةَ صارت تنزِفُ دماً. وعندما رأت إليزابيت الدّم، ندمت والتمست العَفوَ من لُويز، فقبّلت يدها، ورشّتها بالماء. كانت لويز امرأة طيّبة فلمّا رأتْها حزينةً جدّاً، طمأنتها بأنّ يدها لا تُؤلمها. غير أنّ إليزابيت كانت تقول باكِيةً: «لا، لا، إنّني أستحقُّ أن أتألّمَ مثلما جعلتُكِ أنتِ تتألّمين؛ اخدُشي لي يدي مثلما خدشتُ لك يدَكِ، يا مُربِّيتي؛ لَيتَني أُقاسي الألم الذّي قاسيتِه».

تفهَمينَ جيّداً أنّ المُربِّيَةَ لا ترغب في فعلِ ما كانت إليزابيت تطلبه منها، ولم تقلْ هذه الأخيرةُ شيئا إطلاقاً. بقيت إليزابيت

هادئةً فيما تبقّى من اليوم ثمّ ذهبت بهدوءٍ لتنام. وفي اليوم التّالي، عندما أيقظتْها المربّية، رأت على ملاءتها دماً، وحينما نظرت إلى يدها، رأتها مخدوشة بفظاعة. فصاحت بها: «مَن الذي جرحك على هذا النّحو، يا طفلتي المسكينة؟»، فأجابتها إليزابيت: «أنا بنفسي، يا مربِّيتي، لكيْ أعاقِبَ نفسي على أنّني خدشتك أمس. عندمَا استلقيتُ لأنامَ، رأيتُ أنّ من الإنصاف أن أعذِّب نفسي بمثلِ ما عُذّبتِ بهِ أنتِ، فكان أن خدشتُ يدي حتّى أدميتُها». فأقبلت المربِّية، وقد تأثّرت، تقبِّل إليزابيت الّتي وعدتها بأن تكون متعقِّلة في المستقبل. هل فهمتِ الآن ما قالته إليزابيت لكِ ولماذا احمرّ وجهها خجَلاً؟

صوفي: نعم، يا أمّاه، لقد فهمتُ ذلك جيّداً. جميلٌ جدّاً ما قامت بهِ إليزابيت. أظنّ أنّها لن تستشيط غضباً مرّة أخرى أبداً، بما أنّها خَبِرتْ مَضارَّ ذلك.

السيِّدة دو رِيان، وهي تبتسِمُ: ألا تفعلين أنتِ أبداً ما تعلمين مسبقاً أنّه مُضرٌّ؟

صوفي، وقد تملَّكَها الارتباكُ: ولكنّي، يا أمّي، أصغرُ سنّاً؛ عمري أربعُ سنواتٍ، وإليزابيت عُمرُها خَمس.

السيِّدة دو رِيان: سنة واحدةٌ ليست بالكثيرِ؛ تذكَّري غَضبَتكِ منذ ثمانية أيّامٍ، ضدّ ذلك الطيِّب المسكين بول.

صوفي. هذا صحيح، يا أمّاه؛ ولكنّي أعتقدُ رغمَ ما جرى أنّني لن أعيد الكَرَّةَ، وأنّني لن أفعلَ ما أعلم أنّه شيءٌ سيِّئ.

السيِّدة دو رِيان: أرجو لكِ ذلكَ، يا صوفي، ولكنْ احترسي من أن تظنّي نَفسَكِ أفضلَ ممّا أنتِ عليه. هذا يُسمَّى الغُرورَ، وأنتِ تعلمين أنّ الغُرور عيبٌ قبيحٌ حقّاً.

لم تُجِب صوفي، ولكنّها ابتسمت ابتسامة الرِّضا الّتي تعني أنَّها ستكون يقيناً متعقِّلة على الدّوام.

غير أنّ صوفي المسكينة سرعان ما تعرّضتْ لمهانةٍ جديدةٍ؛ إليكم ما وَقعَ بعد يومَيْن.

الفصل السّادس عشر

الثِّمارُ المَكبوسةُ بالسّكَّر

كانت صوفي عائدةً من نُزهة برِفقةِ ابن عمِّها بول. وكان يَنتظِرُ في البَهوِ رجلٌ، يبدو أنّه حوذيُّ عَربةٍ للمسافرينَ، وكان يُمسكُ برزمةٍ تحت إبطِه.

خاطبَه بول قائلاً في أدبٍ جَمٍّ: مَنْ تَنتظرُ، يا سيِّدي؟

الرّجُلُ: أنا في انتظار السيِّدة دو رِيان، يا سيِّدي؛ لديَّ رزمةٌ لأُسلِّمَها إليها.

صوفي: من أرسلها إليها؟

الرَّجلُ: لا أدري، يا آنسة، أنا ساعي البَريد، الرّزمةُ أُرسِلت من باريس.

صوفي: ولكنْ، ماذا يوجد في الرّزمة؟

الرَّجلُ: أظنّ أنّها ثمارٌ مكبوسةٌ بالسّكَّر وشيءٌ من معجونِ المِشمش. على هذا النّحو سُجِّلت في دفتر البريد.

لَمَعَت عينا صوفي؛ وأمرَّت لِسانَها على شفتَيْها.

ثمّ قالت لبول: هيّا بسرعةٍ نُحيط أُمّي عِلماً؛ وانطلَقت وهي تَركض. وبعد لحظات قليلة، أقبلَت الأمُّ، دفعت ثمن شَحن الرّزمة وحملتها إلى غرفة الاستقبال، حيث تبِعها صوفي وبول.

أَحَسّا بالخَيبةِ عندما شاهدا السيِّدة دو ريان تَضعُ الرّزمةَ على الطّاولة وتعودُ أدراجَها إلى مَكتبها لتقرأَ وتكتُب.

تبادل صوفي وبول نظراتٍ حزينةً.

قالت صوفي لبول في همس: لو طلبتَ من أمّي أن تفتح هذه الرّزمة!

بول، هامِساً: أنا لا أجرُؤُ على ذلكَ؛ لا تُحبُّ خالتي اللّهفةَ والفُضولَ.

صوفي، هامِسةً: أُطلُب منها إن كانت تريد أن نوفِّر عليها ما ستبذله من جهد في فتح الرّزمة وذلكَ بأن نتولّى فتحَها نحن الاثنان.

الأُمُّ: إنِّي أسمعُ جيِّداً ما تقولين، يا صوفي؛ من المُشين أنْ تَكُوني مُخادِعةً، وأنْ تتظاهري بالفَضْل والمساعدةِ، بينما الأمر ببساطةٍ شديدةٍ فُضولٌ ورغبةٌ في فتح هذه الرّزمة. لو قلت لي بصراحةٍ: أُمِّي، إنّي أرغب في رؤية الثّمار المكبوسة بالسّكّر، اِسمَحي لي بأَن أفُكَّ عُقَدَ الرّزمة، لكُنتُ أذِنتُ لكِ في ذلك. أمّا الآنَ فإنّي أمنعُكِ من لمسها.

اِلتحقت صوفي مُضطَربةً مُستاءةً بِغرفتها، يتبعُها بول.

قال لها: اُنظري عاقبة التّحيُّل. أنت تفعلين هذا دائماً، وتعلَمين أنَّ خالتي تَضيقُ ذَرعاً بالأباطيل.

صوفي: ولِمَ لَمْ تسألها في ذلك حينَما كلّمتُكَ أنا في الأمر؟ تريد أن تلعب دائماً دَورَ الولدِ المُتعقِّلِ وأنت لا تَأتي غير الحماقات.

بول: أوّلاً أنا لا آتي حماقاتٍ؛ ثمّ إنّي لا أتظاهر بأنّي مُتعقِّل. أنت تقولين ذلك لأنّكِ ساخطةٌ لعدم حصولك على الثّمار المكبوسة بالسّكّر.

صوفي: ليس هذا تماماً، يا سيِّدُ، لستُ ساخطةً سوى عليكَ أنتَ، لأنّكَ تتَسبَّب دائماً في تَوبيخي.

بول: حتّى يومَ خدشتِني بكُلِّ قوّتِكِ؟

اِحمَرَّت صوفي، خَجلا وخِزياً ولزمت الصّمت. ظلاّ بعض الوقتِ دون أن يتبادَلا الكلام؛ وكانت صوفي راغبةً في طلبِ العفوِ من بول، ولكنّ كبرياءَها كانت تُثنيها عن أنْ تُبادر هي بذلك. ولم يكن بول، هو الّذي كان طيِّباً جدّاً، يحمل أيَّ ضغينة لصوفي؛ ولكنّه لم يكن يعرف كيف يفعل كي يَستهلّ المحاورة. أخيراً، وجد طريقةً ماهِرةً للغاية: تأرجحَ على كرسيِّه، ثمّ انحنى إلى الوراء كثيراً، حتَّى سقط. فهُرِعت صوفي إلى مُساعدته على النّهوض.

وقالت له: هل أصابكَ مَكروهٌ، يا بول المسكين؟

بول: لا، بخلاف ذلك.

صوفي، ضاحِكةً: آه! بخلاف ذلك! هذا مُسلٍّ للغاية.

بول: نعم! بما أنّي بتساقُطي توصّلتُ إلى إنهاء خِصامِنا.

صوفي، وهي تُقبِّله: كم أنت طيّب يا بول، ما أشدَّ طيبتَكَ! كان سقوطُكَ، إذاً، مُتعمَّداً؟ كان يُمكن أَنْ تُلحِق ضَرراً بنفسِك.

بول: لا؛ كيف تُريدين أَنْ نُلحِق الضَّررَ بأَنفُسنا عند سقوطنا من كرسيٍّ منخفض كهذا؟ والآن، ما دُمنا صديقَين، هيّا بنا نلعب.

وانطلقا يجريان. فشاهدا، وهما يعبُران غرفة الاستقبال، الرّزمة مشدودة كما كانت. وجرّ بول صوفي، وقد كانت راغبةً في التّوقّف، ولم يعودا يفكّران في الأمر.

بعد العَشاء، استدعت السيِّدة دو رِيان الطِّفلَيْن.

وقالت: سنقوم أخيراً بفتح الرّزمة المشهورة، ونتذوّق ثمارنا المكبوسة بالسّكّر. بول، اذهب وابحث لي عن سكّين لقطع الخيط. اِنطلقَ بول بسرعة البرق وعاد تقريباً في اللّحظة نفسها، وهو يُمسِك بِسكِّينٍ، سلّمها إلى خالته.

قطعت السيّدة دو رِيان الخيطَ، ونزعت اللُّفافاتِ الّتي كانت تُغطِّي الثِّمارَ، واكتشفت عشر عُلبٍ من الثّمار المكبوسة بالسّكّر ومعجون المشمش.

قالت وهي تفتح إحدى العُلب: لِنتذوَّقْ منها لكي نرى إن كانت لذيذة. خذي ثَمرتيْن يا صوفي؛ اختاري تلك الّتي تُحبِّينها أكثر. إليكم ثمار الإجّاص، والخَوْخ، والجَوْز، والمِشمِش،

والأُترُجّ، وحشيشة المَلاك.

تردَّدتْ صوفي قليلاً؛ وتفحّصت أيَّ الثِّمار أكبر حجماً؛ وأخيراً حسمت اختيارها في خَوخةٍ ومشمشة. واختار بول إجّاصة وحشيشة مَلاك. وحالمَا تناول الجميعُ ما طاب لهم أغلقت الأمّ العُلبةَ، الّتي بقيت مملوءة إلى النّصف، وحملتها إلى غرفتها ووضعتها في أعلى رَفٍّ من الرُّفوف. وكانت صوفي قد تبعتها حتّى الباب.

وعند عودتها، أخبرت السيِّدة دو رِيان كُلاًّ من صوفي وبول أنّها لا تستطيع أن تصطحبهما في نُزهةٍ فعليها القيام بزيارة في الجوار.

- تسلَّيا مدّة غيابي، يا طِفليَّ؛ تنزّها، أو امكُثا أمام المنزل، كما تريدان.

وقبّلتْهما قبل أن تستقلّ العربة بصحبة السيّد والسيّدة دوبير والسيّد دو رِيان.

ظلّ الطِّفلان وحدهما ولعبا طويلاً أمام المنزل. وكانت صوفي كثيراً ما تتَحدّثُ عن الثِّمارِ المكبوسة بالسّكّر.

قالت: أنا غاضِبةٌ، لأنّني لم أذق ثمرةَ حشيشة الملاك ولا الخَوْخ؛ يُفترض أن تكون لذيذة جدّاً.

فردَّ بول قائلاً: أجل، إنها لذيذة جدّاً، يُمكِنُ لكِ أَنْ تذوقي

مِنها في الغَد؛ وهكذا لا تعودين إلى التّفكير فيها، صدّقيني، وهيّا نواصل اللّعب.

استأنفا اللعبَ، وكانت اللّعبةُ من اقتراحِ بول. كانا قد صنَعا حوضاً بأنْ حفَرا حفرة صغيرة وملآها ماءً؛ غير أنّه كان يتوجّبُ تعبئتها على الدّوام، لأنّ الأرض كانت تبتلِعُ الماءَ بِمُجرَّد أن يُصبَّ فيها. وفي الأخير، انزلق بول على الأرض المُوحِلة وقلب مِرشّاً مملوءاً على ساقيْه.

وصرخ قائلاً: آيْ، آيْ، ما أشدّ برودة هذا الماء! لقد تَبلّلتُ؛ ينبغي أن أذهب لتغيير حِذائي، وجَوربَيَّ، وسروالي. انتظريني هنا، سأعود بعد ربع ساعة.

ظلّت صوفي قرب الحوض، تضرب الماء برَفشِها الصّغير، ولكنّها لم تكن تفكّر في الماء ولا في الرَّفش، ولا في بول. فيم كانت تُفكّر إذن؟ للأسف، كانت تُفكّرُ في الثّمارِ المكبوسة بالسّكّر، في حشيشة المَلاك، والخَوْخ؛ كانت متحسّرةً لأنّها لم تستطع أكل المزيد منها، ولم تتذوّق مِنْ كُلِّ شَيء طَرفاً.

وفكّرت قائلةً: غداً، ستمُدّني أُمّي بالمزيد؛ لن يكون لي الوقتُ الكافي حتّى أُحسن الاختيار. لو كان في وُسعي أن أراها مُسبَقاً فأنتقي تلك الّتي سوف آخذها غداً... ولماذا لا يسعني أن أراها؟ ليس عليّ إلاّ أن أفتح العُلبة.

ها هي صوفي، وقد تملّكها الفرحُ بفكرتِها، تجري نحوَ غرفةِ أُمِّها وتبحثُ عن سبيلٍ لِلوصول إلى العلبة، ورغم محاولتها أن تقفز، أو أن تمدّ يدها، فإنّها لم تبلغْ مُرادها؛ لمْ تَدرِ ما تصنع؛ بَحثت عن عصاً، أو مِلقطٍ صغيرٍ، أو أيِّ شيء آخر، فجأةً ضَرَبت على جبِينها بيدِها وهي تقول:

- ما أشدّ غبائي! سأقرِّبُ كرسيّاً ثمّ أصعدُ فوقه!

جَذبت صوفي كرسيّاً ثقيلاً ودفعته قريباً جدّاً من الرَّفِّ، ثمّ صَعدتْ فوقه، وبلغت العلبةَ، وفتحتها ونظرتْ بلهفةٍ إلى الثّمار الجميلة المكبوسة بالسّكّر. وقالت: ما الّذي سأختاره منها غداً؟ لم تقدرْ صوفي أن تحسِمَ أمرَها: تارةً تختارُ هذه، وطوراً تلك. ولكنّ الوقت كان يمضي؛ وبول يوشك أن يعود.

فكَّرتْ قائلةً: ماذا سيقول عنِّي لو رآني هنا؟ سيظنّ أنّني بصدد سرقة الثِّمار المكبوسة بالسّكّر، رغم أنّي لا أزيد عن النّظر إليها... عندي فكرةٌ جيِّدةٌ: إنْ أنا قضمتُ قطعةً صغيرةً من كلِّ ثمرة، فسأطّلِع على المذاق الّذي فيها جميعاً، وسأحدِّد الأفضل من بينها، ولن يعلم أحد جَليَّةَ الأمرِ، لأنِّي سأقْضِم من كلّ ثمرة قدراً ضئيلاً لا يكادُ يَظهَر.

قضمت صوفي قطعَةً من حشيشة المَلاك، ثمّ مِشمِشة، ثمّ خَوْخة، ثمّ جَوْزة، ثمّ إجاصّة، ثمّ أُترُجّة، غير أنّها لم تحدّد

اختيارَها كَمَا توقَعت.

فقالت: يجب أنْ أُعيد الكَرَّة.

أعادت القَضمَ، وأعادت مَرّاتٍ عديدةً، حتّى لم يتبقّ في العُلبة أيُّ شيءٍ تقريباً. وهو ما انتبهت إليه في الأخير؛ فاعتراها الجزع.

وقالت: يا إلهي، يا إلهي! ماذا اقترفت يدايَ؟ لم أكُن أرغبُ سِوى في التّذوُّق، فإذا بي آتي عليها كلَّها تقريباً. ستلحظُ أُمِّي ذلك ما إنْ تفتح العُلبةَ؛ وستَعرف أنّني أنا الفاعِلة. ما العمَلُ، ما العمَلُ؟... أستطيع أن أقول إنّني لستُ الفاعِلةَ؛ ولكنَّ أُمِّي لَنْ تُصدِّقَني... وماذا إذا ادَّعيْتُ أنّ الفئرانَ هي الفاعلةُ؟ تماماً، لقد رأيتُ في هذا الصّباح واحداً يجري في المَمرّ. سأذكر ذلك لأمِّي؛ ولكنْ، سأذكر أنّه كان جُرذاً، لأنَّ الجُرذ أضخمُ من الفأر، ولأنّه يأكُلُ أكثرَ، وبما أنّني أكلتُ كلّ شيء تقريباً، فأن يكون جُرذاً أفضلُ من أن يكون فأراً.

أغلقت صوفي العُلبةَ، وهي مَفتونةٌ بِفكرِها الثّاقِبِ، وأرجعتها إلى موضِعهَا ونزلتْ من الأريكة. عادت إلى الحديقة وهي تركُضُ؛ وما إن وَجدت الوقتَ الكافيَ لتُمسِك بِرَفشها حتّى رجع بول.

بول: مكثتُ وقتاً طويلاً، أليس كذلكَ؟ ذلك أنّني لم أعثُر على زوجَيْ حذائي؛ لقد أُخِذا لِيُلَمَّعَا، ولقد فَتَّشتُ عنهما في كلِّ مكانٍ قبل أن أسأل عنهما باتيست. ماذا فعلتِ خلال غيابي؟

صوفي: لاَ شيءَ مُطلقاً، كُنتُ في انتظارِكَ؛ كنتُ أَلعبُ بالماء.

بول: ولكنَّكِ تَركتِ الحَوضَ يَفرغُ مِنَ الماءِ؛ لم يَعُد بِداخِلهِ شَيء. أعطيني رفشكِ، حتّى أَدُقَّ القاعَ قليلاً كي يَصيرَ أكثَرَ صلابةً؛ اِذهبي في أثناء ذلك لِتَردي الماءَ في السَّطل.

ذهبت صوفي تَجلِب الماءَ بينما كان بول يُصلِح الحَوض. وعندما رجعت، أعاد إليها بول الرَّفشَ وقال:

- رَفشُكِ لزِجٌ كلُّه؛ إنّه يلتصِقُ بالأصابع؛ ماذا وضعتِ فوقه؟

أجابت صوفي: لا شيءَ، لا شيء. لا أدري لماذا هي تلتصِق.

وغطّسَت صوفي يديْها بسرعةٍ في المِرشِّ المملوء ماءً، فقد رأتْ أنّها مُلطّخةٌ بمادّةٍ لَزِجة.

وسألها بول: لماذا تضعين يديْكِ داخلَ المِرَشّ؟

صوفي، وهي مُضطربةٌ: لأرى إن كان الماءُ بارداً.

بول، ضاحكاً: تَبدين على هيئةٍ مُضحِكةٍ منذ أن رجعتُ! كأنّكِ اقترفتِ عملاً شائناً.

صوفي، وهي قلِقةٌ: ما العمل الشّائن الذي تريدُني أن أكون اقترفتُه؟ ما عليكَ إلاّ أن تنظُر؛ ولَن تعثُر على شَيءٍ شائِن. لا أدري لماذا تقول إنّني اقترفتُ عملاً شائناً؛ لديكَ دائماً أفكارٌ مُضحِكة.

بول: ما أشدّ غضَبكِ! إنّها دُعابةٌ كنتُ قد اختلقتُها. أُطمئِنُكِ بأنِّي لا أصدِّق أيَّ واحدة مِنَ الأعمالِ السّيِّئةِ التي قد تصدُر عنك،

ولا داعِيَ أنْ تنظُري إليّ هذه النِّظرةَ الشّرِسة.

هزَّت صوفي كتِفيْها، استرجعت مِرشّها وسكبت الماءَ في الحوضِ، وقد غاصَ في الرَّمل. هكذا استغرقَ الطّفلان في اللّعب حتّى السّاعة الثّامنة؛ وجاءت المربِّيتان تُفتِّشان عنهما وتَحمِلانهما. لقد حانت ساعةُ النّوم.

قضت صوفي ليلةً مضطربةً؛ فقد حَلُمت أنّها كانت قربَ



حديقةٍ مُسَيَّجة؛ وكانت هذه الحديقةُ ملأى بالأزهارِ وبثمارٍ تبدو لذيذة. كانت تبحثُ عن سبيلٍ للدّخول؛ فجذبها أحدُ الملائكة إلى الخلف وخاطبها في صوتٍ حزين:

- لا تدخلي، يا صوفي؛ لا تذوقي من تلك الثّمارِ الّتي تتراءى لكِ لذيذةً جدّاً، إنّها مُرّة ومَسْمومة؛ لا تشُمّي هذه الأزهارَ التي تبدو جميلةً جدّاً غير أنّها تنشُرُ رائحةً نتِنةً ومَسمومة. هذه الحديقة



هي حديقة الشرّ. دعيني أحمِلُكِ إلى حديقة الخير.

فقالت صوفي: ولكنّ الطّريقَ للذّهابِ إلى هناك وَعرٌ، مليء بالأحجارِ، بينما الطّريق الآخرُ مغطّى بِرَملٍ صافٍ، لطيف المَلمس على القدميْن.

فقال الملاكُ: نعَم، ولكنّ الطّريق الوعرَ سيقودكِ إلى حديقة الملذّات. أمّا الطّريق الآخر فسيقودك إلى موضعٍ للألم والحُزن؛ كلّ شيء هنالك رديء؛ والنّاس الّذين يسكنون هناك أشرارٌ وقُساةٌ، وبدلَ مُوَاساتك، سيهزَؤون مِنْ آلامكِ، وسيزيدون منها بإيلامِكِ هم أنفسُهم.

تردَّدتْ صوفي؛ نَظرتْ إلى الحديقة الجميلة وهي ملأى أزهاراً وثماراً، ومسالكها رمليّةٌ ظليلةٌ؛ ثمّ ألقت ببصرها على الطّريق الوعر القاحِل، الّذي يتراءى بلا نهايةٍ، اِلتفتت نحو الحاجز، الّذي انفتح أمامها، وجازت إلى الحديقة، وهي تتملَّص من بين يدَيْ مَلاكها المُخلِّص. فصاح بها الملاكُ:

- ارجَعي، ارجَعي، يا صوفي، سأكون في انتظاركِ قرب الحاجز؛ سأكون في انتظارك حتّى مَماتكِ، وإنْ رجعت يوماً إليّ سأقودك إلى حديقة الملذّات عبرَ الطّريقِ الوعرِ، الّذي سيسهل ويتجمّل كلّما مضيتِ فيه قُدُماً.

لمْ تكُن صوفي تُنصت إلى صوت ملاكها الطيّب؛ كان أطفالٌ

على قدرٍ من الجمالِ يشيرون إليها أن تتقدّمَ، فركضت في اتّجاههم، أحاطوا بها ضاحكين، وأخذ بعضهم يجَزها، وبعضهم الآخر يجتذبها بقساوةٍ، ويقذف بالرّمل في عينيها.

تخلّصتْ صوفي منهم بعد عناءٍ، ولمّا ابتعدتْ، قطفت زهرةً ذات مظهرٍ فاتن؛ شمّتها ورمت بها بعيداً: كانت رائحتُها كريهةً. واصلت التّقدّمَ، ولمّا رأت الأشجار عامِرة بثمار أكثرَ جمالاً، أخذتْ واحدةً وذاقتها؛ غير أنّها رمت بها بتقزُّز أكثر ممّا فعلت مع الزّهرة: كان طعمُها مُرّاً وكريهاً. واصلت صوفي، وكانت حزينةً، تِجْوَالها، إلاّ أنّها كانت أينما حلّت عُرضةً للغشّ مثلما حصَل لها مع الأزهار والثِّمار. ولمّا كانت قد مكثتْ بعضَ الوقتِ في هذه الحديقةِ حيثُ كان كلُّ شيءٍ رديئاً، تذكّرت ملاكها المُخلِّصَ، ورغم وعودِ سكّانِ الحديقةِ الأشرارِ ونداءاتهم، ركضتْ نحوَ الحاجزِ فلمحتْ ملاكها، ومدّ لها يديْه. فدفعت الأطفالَ الأشرارَ وارتمت في أحضانِ ملاكها، الّذي جذَبها إلى الطّريق الوعْر. بدت لها الخطواتُ الأولى صعبةً، غير أنّها كلّما تقدّمتْ صارَ الطّريق سهلاً، وكانت البلاد تلوح لها لطيفةً رائِقة. كانت على وشكِ ولوجِ حديقةِ الخيرِ، حينما استيقظتْ مضطربةً تتصبّبُ عرقاً. فكّرت طويلاً في هذا الحُلُم. وقالت في نفسها: ينبغي أن أطلُب إلى أُمِّي أن تُفسِّره لي؛ وعادت إلى النّوم حتّى يوم الغد.

حينما ذهبت إلى أُمِّها، أَلْفَت وجهها صارماً؛ وكان الحُلُم قد أنساها الثِّمارَ المكبوسة بالسّكّر، فشرعتْ على الفور تقصّ رُؤياها.

الأُمُّ: هل تعلمينَ على ما يدلّ حُلُمكِ، يا صوفي! هو أنّ الله الرّحيم يراكِ غيرَ مُتعقِّلةٍ، فيُحذِّركِ بواسطة هذا الحُلُم أنّه، إنْ أنتِ واصلتِ ارتكابَ المكارهِ ممّا يبدو لكِ مُغرياً فسيكون جزاؤكِ الحزنَ عِوَضَ الفرح. هذه الحديقة الخادعة، هي جهنّم؛ أمّا حديقة الخير، فهي الجنَّة؛ ونَصِل إليها عَبرَ طريقٍ وَعرٍ، أَيْ بِحرمانِ أَنفُسنا مِنَ الأشياءِ المُغريةِ، إلاّ أنَّها محظُورةٌ، ويَصيرُ الطّريق أَسهلَ كلَّما تقدَّمنا في السَّير، أَيْ أنّنا مِنْ فَرطِ طاعتنا، ووداعتنا، وطيبَتنا، نَعتادُ ذلكَ اعتِياداً حتّى يُصبِحَ مِنَ اليَسير علَينا أنْ نُطيع أو أنْ نكون طيِّبين، وحتّى أنّنا لنْ نتألّمَ مِنْ عدَم انسياقِنا وراءَ جَميعِ رَغباتِنا.

تململَتْ صوفي فوق كرسيِّها؛ واحمرّ وجهُها خجلاً، ونظرت إلى أمِّها؛ كانت راغبةً في الكلام؛ ولكنّها لم تستطع أنْ تبُتّ في الأمر. وفي الأخير هبّت السيِّدة دو رِيان، وقد عَاينت اضطرابها، لمساعدتها قائلةً:

- لَديكِ شيءٌ ما تريدين الاعترافَ به، يا صوفي؛ ولكنّكِ لا تجرُئين على ذلك، لأنّ ثمنَ الاعتراف بالخطأ باهظٌ على الدّوام. إنّه الطّريقُ الوعرُ الّذي هداكِ إلى سبيله ملاكُكِ وهو الّذي أثار

فيك الخوف. هيّا، يا صوفي، أنصتي إلى ملاكِكِ المُنقِذ، وامضي بشجاعة في الطّريق الّذي يُوجِّهكِ إليه.

ازداد احمرارُ صوفي خجلاً، ودسّت وجهها بين يديها، واعترفت لأمِّها، بصوتٍ مُرتعِشٍ، بأنّها أكلت البارحة كلّ ما في علبة الثّمار المكبوسة بالسّكّر تقريباً.

السيِّدة دو رِيان: وكيف كنتِ تأملين إخفاء ذلك عنّي؟

صوفي: كنتُ أريد أن أزعُم لك، يا أمّاهُ، أنّ الجرذان هي الّتي أكلتها.

السيِّدة دو رِيان: كنتُ لن أصدِّق ذلك إطلاقاً، على خلاف ما كنتِ تظنّين، فالجرذانُ لا تستطيعُ أن ترفعَ غطاءَ العُلبةِ وأن تُغلقه بعد ذلك؛ كان على الجرذان أنْ تبدأ بالعضِّ، وتمزيق العُلبةِ كي تصِلَ إلى الثِّمار. ثمّ إنّ الجرذانَ لم تكنْ في حاجةٍ إلى أن تُقرِّبَ كرسيّاً حتّى تصِلَ إلى الرَّفّ.

صوفي، وهي مُندهِشةٌ: كيف! هل رأيتني وأنا أجذب الكرسيّ؟

السيِّدة دو رِيان: لقد نسيتِ أن تُرجِعيه إلى موضعِه؛ فكان ذلك أوّلَ شيء استرعَى نظري بالأمس وأنا عائدةٌ إلى منزلي. أدركتُ أنّكِ أنتِ الفاعلةُ، خُصوصاً إثر قيامي بتفقُّد العُلبةِ وعثوري عليها فارغةً تقريباً. تَرينَ كم أحسنتِ صُنعاً بمصارحتي

بخطئِك؛ ما كانَ لأكاذيبك سِوى أنْ تَزيد الطِّين بَلّةً، وأن تزيد عقابك قَسوةً. وتقديراً لَمَا بذلتِ من مجهود وقد اعترفتِ بِكُلّ شيء، فإنّك لن تنالي عُقوبةً أخرى غدًا أنْ لا تأكُلي المزيدَ من الثِّمار المكبوسة بالسّكّر.

لَثمَت صوفي يَدَ أُمِّها، الّتي قبّلتها بدورها؛ وعادت إثر ذلك إلى غُرفتها؛ حيث كان بول ينتظرها على مائدة الغداء.

بول: ماذا أصابكِ، يا صوفي؟ إنّ عينيْكِ مُحمرّتان.

صوفي: لقد بكيتُ.



بول: لماذا؟ هل وبَّختك خالتي؟

صوفي: لا، ولكنّني كنتُ خجلِة مِنْ الاعتراف بفعلةٍ كنت قد اقترفتُها أمس.

بول: ما هذه الفعلةُ؟ أنا لم ألحظ شيئاً أمس.

صوفي: ذلك لأنّي قد أخفيتُ عنكَ ما كنتُ صنعتُ.

وقصّت صوفي على بول كيف كانت قد أتتْ على علبة الثِّمار المكبوسة بالسّكّر، بعد أنْ كانت ترغب فحسبُ في مشاهدتها واختيار الأجودِ منها ليوم الغد.

أَثنَى بُول على صوفي كثيراً لأنّها اعترَفَت لأُمِّها بِكُلِّ شيء. وخاطَبها قائلاً: كيف استَجمعتِ كلَّ هذه الشّجاعة؟

فقصّت عليه صوفي حُلُمها، وكيفَ تولَّت أمُّها تَفسيرَه لها. ومنذ ذلك اليوم تَذكّرَ بول وصوفي مِراراً ذلكَ الحُلُمَ، الّذي ساعدهما على أنْ يكونا مُطيعَيْن وطيِّبيْن.

الفصل السّابع عشر

القِطُّ وطائرُ الدَّغناش

ذاتَ يومٍ كانت صوفي وبول يَتنزّهان بِرفقةِ مُربِّيتهما؛ كان الثلاثةُ قد قَفلوا عائدِين مِنْ عند امرأةٍ فَقيرةٍ ذهبوا ليَهَبوها مالاً، وكانوا راجِعين على مَهَلٍ؛ تارةً يَبحَث الطِّفلان عن شجرة يَتسلّقانِها، وطَوراً يَمضِيان ما بين السِّياجاتِ ويَختَبِئان وسط الأدغال. كانت صوفي مُختبِئةً وكان بول يَبحَث عنها، حينَما تناهَى إلى سَمْعِها مُواءٌ خافِتٌ لا يَكاد يُسمعُ، كان مُواءً ضعيفاً، شاكِياً. تملَّكَ صوفي الخوفُ؛ وخرجت مِنْ مَخبَئِها.

قالت: فلنُنادِ المُربِّيَةَ يا بول؛ لقد سمِعتُ صَيحةً خافِتةً، كأنّه قطٌّ يَموءُ، قريباً منِّي في الدَّغْل.

بول: لماذا ينبَغي مناداةُ المُربِّية؟ هيّا بنا نستطلِعُ خافِيةَ الأمر بِأنفُسِنا.

صوفي: أوه، لا! إنِّي خائِفة.

بول، ضاحِكاً – خائفةٌ! ومِمَّ؟ إنّكِ تقولين بِنفسِكِ إنّها كانت صيحةً خافِتةً. ما هو إذن بِالحيوانِ الضَّخم.

صوفي: لا أدري؛ لعلّه ثُعبانٌ، أو ذِئبٌ صغيرٌ.

بول، ضاحِكاً – ها! ها! ها! ثعبانٌ يَصيحُ! هذا جديد! وذئبٌ

صغيرٌ يُطلِق صَيحةً هيَ من الخفوت بحيث لم أسمعْها، أنا الّذي كنتُ قريباً منكِ جدّاً!

صوفي: أنصتْ، ها هي الصّيحةُ بِعَينِها! هل سمِعتَ؟

أنصَت بول فسَمِع بالفِعل مُواءً خافِتاً، ضعيفاً للغايةِ، يخرُج من الدَّغْل. فجرى رغم توسّلاتِ صوفي.

وصاحَ بِها بَعدَ أنْ بَحَث بضعَ لحظاتٍ: إنّه قِطٌّ صغيرٌ مسكينٌ تبدو عليه عوارِضُ المَرضِ، تَعاليْ اُنظُري كم يبدو بائِساً.

أسرعت صوفي؛ فرأَت قطّاً في غايةِ الصِّغَرِ، أبيضَ اللَّونِ، مُبلَّلاً بقَطر النَّدى ومُلطَّخاً بِالوَحْل، كانَ مُستلقِياً قريباً مِنَ المَوضع حيثُ كانت مُختبِئةً.

قالت صوفي: يَجبُ أنْ نُناديَ مربِّيتي، حتّى تَنقُلَه؛ يا لَلْقُطَيْط المسكينِ، ما أشدَّ ارتجافَه.

قال بول: كَم هو هزيلٌ! ثمّ ناديا على المُربِّية، وقد كانت تَتَّبع أَثَرهُما عن بُعد. وعندما لَحِقت بِهما، أَرَياها القِطَّ الصَّغيرَ وطَلبا مِنها أنْ تَنقُله.

المُربِّيةُ: لكنْ كَيف العَملُ حتّى نَنقُله؟ إنّ هذا القطّ الصَّغيرَ الشّقِيَّ المسكينَ مُبلَّلٌ جدّاً ووَسخٌ كثيراً، حتّى أنِّي لا أَستطيعُ أنْ أحمِله بيْن يَديَّ.

صوفي: حَسناً، يا مُربِّيتي، ضَعيه على ورقات.

بول: أَو بِالأَحرى في مِنديلي؛ سيكونُ أَفضَل بِكثير.

صوفي: هو ذاكَ! لِنُنشِّفه بمِنديلي، ولنُمدِّده في مِنديلكَ؛ وستنقُله مُربِّيَتي.

ساعَدتهما المُربِّيَةُ على تَدبير القطِّ الصَّغيرِ، الّذي لم يَكُن يَملِك القوّة لِيَتحرّكَ، ولمّا صار مُتدثِّراً وسط المِنديلِ، حَملَته المُربِّيَةُ، وتَعجَّلوا كلُّهم الوُصولَ إلى المنزل لِيُقدِّموا له الحليبَ السّاخِن.

لمْ يعودوا بَعيدين عن المنزل، وصاروا قابَ قوسيْن أو أدنى مِنَ الوُصول. جَرى بول وصوفي إلى الأمام، نَحو المَطبخ.

قالت صوفي لجان الطّبّاخ: أَعطِنا بِسرعة كأساً مِنَ الحليب السّاخِن.

فأجابها جان: وماذا تَفعلين بِه، يا آنستي؟

- هو مِنْ أَجل قِطٍّ صغيرٍ مِسكينٍ عَثَرنا عليه داخِل سِياجٍ، وقد أَشرَف على الموت جُوعاً. ها هو ذا؛ إنَّ مُربِّيتي تَحمِلُه في مِنديل.

وضعت المُربِّيَةُ المِنديلَ على الأرضِ؛ وجاء الطبّاخُ بمَلءِ الصّحن حليباً ساخناً للقطِّ الصّغيرِ، فارتَمى عليه، وازدَرده كلَّه، دون أنْ يترُكَ قَطرةً واحدة.

قالت المُربِّية: أَحسَبُ أنّه كاملُ الرّضا الآنَ، لقد شَرِب ما يَزيدُ على الكَأسيْن حليباً.

صوفي: آه! ها هو ذا يَقومُ! إنّه يَلحَسُ وَبَره.

بول: ماذا لو حَمَلناه إلى غُرفتِنا؟

الطّبّاخ: أنا أنصحُكما، سيّدي وآنِستي، بِتَركه في المطبخ، أوّلا لأنّه سيجِفُّ أفضلَ قُربَ الرّمادِ السّاخِن، ثمّ لأنّه سيجِدُ هنا كلَّ ما يرغبُ في أكلهِ؛ وأخيراً لأنّه سيَستطيعُ الخُروج عندما يكونُ في حاجةٍ إلى ذلكَ، وسيتَعلَّم بِذلكَ أنْ يكون نَظيفاً.

بول: هذا صحيح. فلنَترُكه في المَطبخ، يا صوفي.

صوفي: ولكن هل سيكونُ على الدَّوام تحت تَصرُّفنا وهل سأراه قَدر ما أَرغَبُ في ذلكَ؟

الطّبّاخُ: يَقيناً، يا آنِستي، ستَريْنه حينما تَرغَبين في ذلك. أليس القطُّ قطَّكِ على أيِّ حال؟

وحَمَل الطّبّاخُ القطَّ، ووضَعه فوقَ إناءِ الرّمادِ السّاخِنِ تحت الفُرن. وتَركَه الطّفلان حتّى يَنام وأَوصَيا الطّبّاخَ مِراراً بأنْ يَضع له حليباً بقُربه حتّى يَستَطيع أنْ يَشربَ منه حينَ يكونُ جائِعاً.

صوفي: ماذا سنُسمِّي قِطَّنا؟

بول: لِنُسمِّه «الحبيب».

صوفي: أوه لا! هذا اسمٌ عاديّ. لِنُسمِّه بالأَحرى «الفتّان».

بول: وإذا صارَ في كِبَرِه قَبيحاً؟

صوفي: هذا صحيح. ماذا سنُسمّيه إذن؟ يجِب مع ذلك أنْ يكون لَه اسم.

بول: أتعلَمين، هناك اسمٌ جميلٌ جدّاً؟ إنّه «مينون الجميل».

صوفي: آه أَجل! مِثلما هو الأمرُ في «حِكاية بلوندين». هذا صحيحٌ: لِنُسمِّه «مِينون الجميل». سأطلُب مِنْ أُمِّي أنْ تَصنع له طَوقاً وأنْ تُطرِّزَ مِنْ حَولِه اسمَ «مينون الجميل».

ركَض الطِّفلان إلى غرفة السيِّدة دو رِيان ليقُصّا عليها حِكايةَ القِطِّ الصّغيرِ وليطلُبا مِنها طَوقاً. وذهَبت السيِّدة دو رِيان لِتُشاهِدَ القِطَّ وتأخُذَ مَقاس رَقبَتِه.

ثمّ قالت: لا أَدري إنْ كان في استِطاعَة هذا القِطِّ المِسكين أَنْ يَعيش، إنّه هزيلٌ لِلغايَةِ وأضعفُ من أنْ يَلبَثَ قائِماً على قوائِمه.

بول: ولَكنْ كيفَ له أنْ يُوجَد داخل السِّياجِ؟ إنّ القِطط لا تَعيشُ في الغابة.

السيِّدة دو رِيان: لَعلَّ أطفالاً أشراراً قد حَملُوه لِلَّعب، فرَمُوا به بعد ذلكَ داخلَ السِّياج، وهُم يظُنّون أنّه قادِرٌ على العَودة بمُفردِه إلى مَنزله.

صوفي: ولماذا لم يعُد بنفسِه؟ إنَّ الغَلطةَ غَلطتُه إذا كان آلَ إلى هذا المآلِ البائِس.

السيِّدة دو رِيان: إنّه صغيرٌ جدّاً فلا يَستطيع العُثور على طريقِه؛ ثمّ إنّه رُبّما جاء مِنْ بَعيدٍ جدّاً. لو أنَّ رِجالاً أشراراً قد حَملوكِ إلى مكانٍ بعيد جدّاً وتركوكِ في ناحيةٍ مِنَ الغابةِ، فماذا أنتِ

فاعِلةٌ؟ أتَحسَبين أنّكِ تَستطيعين العُثورَ على طريقِكِ بمُفردِكِ؟

صوفي: أوه! لا لن أَرتَبكَ! سأسيرُ على الدّوام إلى أنْ يعترضَني أَحدُهم أو أُشاهدَ منزلاً؛ وهكذا أقدِّم نفسي وأطلبُ أنْ أُرَدَّ إلى منزلنا.

السيِّدة دو رِيان: أوّلاً، قد تُلاقِين أَشراراً لا يُريدون أنْ يُلهِيَهم أمرُكِ عن المُضيِّ في طريقِهم أو القِيامِ بِأشغالِهم فلا يَرجِعونَ بِكِ. ثمّ إنّكِ قادرةٌ على الكلامِ، ويُمكِنُ فَهمُكِ! أمّا القِطّ المِسكين، فهل تظُنّين أنّهُ، إنْ هو دخل إلى منزلٍ، يُمكنُ أن نَفهَم ما يُريدُ، أو أين يَقطُن؟ كان يُمكِنُ أنْ يُطرَد، أو يُضرَب، أو قد يُقتَل.

صوفي: ولكنْ لِمَ ظلّ في ذاك الدَّغْل حتّى يَموت مِنَ الجوع؟

السيِّدة دو رِيان: لَعلَّ الأطفالَ الأشرارَ رَمُوا به هناكَ بَعد أن أَشبَعوه ضَرباً. مِنْ جِهةٍ أُخرى لمْ يكن هذا القطُّ مُغفَّلاً ببقائه هُناك، لقد مررتُم قريباً مِنْ ذاكَ المكانِ فأنقَذتُموه.

بول: أمّا هذه، يا خالتي، فإنّه لا يَستطيع أنْ يَتنبّأَ بأنّنا سنمرُّ مِنْ هناك.

السيِّدة دو رِيان: هو، لا؛ ولكنَّ الله الرّحيمَ سَمَح بِحُدوث ذلك حتّى يُوفِّر لَكُما فُرصةَ أَنْ تكونا مُحسِنَيْن، حتَّى مع الحيوان.

لم تَقُل صوفي وبول، وكانا مُتلهِّفيْن لِمُعاودة رُؤيةِ قطِّهما، شيئاً وعادا إلى المطبخ، حيثُ وَجدا مينونَ الجميلَ يَغُطُّ في النّوم على

فراشِ الرّماد الدّافئ. وكان الطبّاخُ قَد وَضَع بالقُربِ مِنه مَلء جَفْنَةٍ صَغيرةٍ مِنَ الحليب؛ لمْ يكُن ثمَّة إذاً أيُّ شيءٍ يَعملانه مِنْ أَجلِه، فراح الطِّفلان يلعبان في حديقتِهما الصّغيرة.

لمْ يمُت مينون الجميل؛ بل صار في أيّام مَعدوداتٍ قويّاً، في صحّةٍ جيِّدةٍ وأكثر مرَحاً. وكلّما كبُر ازداد جمالُه؛ كان وَبَرُه الطّويلُ الأبيضُ ناعِماً وحَريريَّ المَلمَس؛ وكانَت عَيْناه الواسِعَتان برّاقتَيْن كأنّهما شَمسان مُشِعَّتان؛ وكان أنفُه الورديُّ يُظهِرُهُ في مَظهَرٍ لَطيفٍ وطُفوليٍّ. لقد كان قِطّاً مِنَ الفَصيلةِ الأنقريّةِ الحَقيقيّةِ، ومِنْ أَكثرِ أصنافِها جَمالاً. كانت صوفي تُحبُّه كثيراً؛ أمّا بول، الّذي كان كثيراً ما يَجيءُ لِقضاءِ بَعضِ الأيّامِ في رِفقةِ صوفي، فَقَد كانَ بِدَورِه يُحبُّه كثيراً. كان مينون الجميلُ أَسعَد قطٍّ بَين القِطط. ولمْ يكن فيه سِوى عيبٍ وحيدٍ، يُسبِّبُ الحرجَ لصوفي: لقد كان شديد الضّراوة مع الطّيور. فما إنْ يكون في الخارج، حتَّى يَتسلّق الأشجارَ لِيُفتِّش عن الأعشاش ولِيأكُل الفِراخَ الّتي يعثُرُ عليها. بل إنّه كان أحياناً يَأكُل أُمّهاتِ العَصافيرِ المِسكينةَ الّتي تَفزَع لِلذّودِ عنْ صِغارها ضدّ مينون الجميل الشِّرّير. وعندما كانت صوفي وبول يُبصرانه يَتسلّقُ الأشجارَ، كانا يَبذُلان ما في وُسعِهما لِحَمله على النُّزولِ؛ غَيرَ أنَّ مينون الجميل لمْ يكُن يَستمع إليهما، وكان يُواصل مع ذلك تسلُّقه وفَتكه بالعصافير الصِّغار وهي تُصدرُ زَقزقاتٍ مُنتحِبةً.

لمّا كان مينون الجميل يَنزلُ مِنَ الشّجرة، كانت صوفي تضْربه بِقُوّةٍ بواسطة قضيبٍ: إلاّ أنّه كان يَجِد الوسيلةَ لاجتِنابِها بالمُكوثِ طويلاً في أعلَى الشَّجرةِ، فلا تستَطيعُ صوفي أنْ تَصِل إليه. وفي أحيانٍ أخرى، عندما يَبلُغ مُنتَصَف الشّجرةِ كان يَرتمي، ويَقفِزُ إلى الأرضِ ويفِرُّ بأقصى سُرعتِه قبل أنْ تتمكَّن صوفي مِنَ اللَّحاقِ به.

وكان الطِّفلان يُخاطِبانِه قائليْن: حذارِ، يا مينون الجميل! سيُعاقبُكَ الله جزاء أعمالكَ الشِّرِّيرة. وسيصيبك مكروهٌ يوماً.

ولم يكن مينون الجميل يُنصِت إليهما.



وذات يوم جَلَبت السيِّدة دو رِيان إلى غرفة الاستقبال عصفوراً لطيفاً، داخل قفصٍ جميلٍ، مُذهَّبٍ كلُّه.

أُنظُرا، يا وَلَديَّ، ما أجمل طائرَ الدَّغناشِ الّذي أَرسلَه إليَّ أحدُ أصدِقائي. هو يُغنِّي بِرَوعة.

صوفي وبول، معاً: أوه! كمْ نودُّ سماعَه!

السيّدة دو رِيان: سأجعلُه يُغنّي؛ ولكنْ لا تقتَربا كثيراً، حتّى لا تُفزِعاه... وواصلت السيّدة دو رِيان مُخاطِبةً الطّائر: صغيري، يا صغيري، غَنِّ، يا صديقي؛ غنِّ، يا صغيري، غَنِّ.

شرع طائرُ الدَّغناشِ في التّأرجُح، وفي إمالة رأسِه ذات اليمين وذات الشّمال، ثمّ أخذ يُصفِّر لحنَ «أغنية في ضوء القمر». ولمّا أَتمَّها، أَدّى بِصفيره لحنَ أغنية «عندي تبغٌ جيِّدٌ»، ثمّ لحنَ أغنية «المَلِك الطيّب داغوبار».

كان الطِّفلان يَستَمعان إليه دون حراكٍ؛ كانا يجرُؤان فقط على التّنفّس أو يكادان كيْ لا يُفزعا طائرَ الدَّغناش. وعندما انتَهى من الغناء، صاح بول قائلاً:

- أوه! يا خالتي، كم هو بارِعٌ في الغِناء! ما أشدَّ عذوبةَ هذا الصّوتِ الخافِتِ! أُريدُ الاستِماع إليه دائماً!

فقالت السيِّدة دو رِيان: سنَجعلُه يُعاوِد الغِناء بَعد العَشاء؛ هو الآن تعِبٌ، لقد وصل لِتوِّه مِنَ السَّفر؛ لِنُعطِه الطَّعام. اذهَبا

إلى الحديقة يا ولدَيَّ، واجلِبا لي من عُشبَتَي اللُّبَّيْن وآذان الجَدي؛ سيَدُلُّكما البُستانِيُّ علَى مَوضِعهما.

ركَض الطّفلان نَحو بُستان الفاكهة وجلَبا كمِّيّةً كبيرةً مِن عشبة اللُّبّيْن كان يُمكنُ بها طَمرُ القَفص كلّه. ونبَّهتهما الأُمّ إلى أنْ لا يَقطِفا في المستقبلِ إلاّ حُزمةً صغيرةً، ووَضعتْ مِنها في قفَص طائرِ الدَّغناشِ، الّذي بَدأ على الفَور في نَقرِها.

وقالت السيِّدة دو رِيان: هيّا بنا نتعشّى الآنَ، يا ولديَّ، إنّ أَبويكُما في انتظارِنا.

ووَقتَ العَشاء، كان الحديثُ عن طائرِ الدَّغناشِ الجميل طاغياً.

قالت صوفي: يا لَرَأسِه الأسودِ الجميل!

وقال بول: يا لَلبطنِ الأحمرِ الجميل!

وقالت السيِّدة دو رِيان: وكم هو يُغنِّي ببراعة!

وقال السيِّد دو رِيان: يَنبَغي أنْ نَجعلَه يُغنِّي كلَّ الأنغام الّتي يعرفها، وحالما انتهت حفلةُ العَشاءِ، انتَقلَ الجَمعُ إلى غرفة الاستقبال؛ كان الطِّفلانِ يَجرِيان في المُقدِّمةِ، وعِندَ الدُّخول إلى غرفة الاستقبال، سَمِعت السيِّدةُ دو رِيان صيحةً مُريعةً؛ فهُرِعت ووَجَدتهُما جامِدَيْن في مكانِهما من فَرط الذُّعرِ، وهما يشيرانِ بأصابِعهما إلى قَفص طائرِ الدَّغناش. ومِنْ داخل ذلكَ القفصِ،

وقد كانت بعضُ قُضبانِه مَلويّةً ومُكسَّرةً، وَثَب مينون الجميل إلى الأرضِ، وهـو يَحمِلُ بين شدقيْه طائرَ الدَّغناشِ المِسكينَ الّذي مازال يُصفِّقُ بِجَناحيْه. صَرخَت السيّدة دو رِيان بِدورِها وجَرَت نَحوَ مينون الجميل لِتَحمِله على تَركِ الطائر. هَرب مينون الجميل تَحتَ أَريكة. وتَناول السيِّد دو رِيان، وقَد دَخَل لِتوِّه، مِلقطاً صغيراً وأَراد أنْ يُسدِّد لِمينون الجميل ضَربةً. ولَكنَّ القطّ، وقد كان علَى أُهبَةِ الاستِعدادِ لِلفِرار، وَثَب نحو الباب الّذي ظلَّ مفتوحاً. وطاردَه السيّدُ دو رِيان مِنْ غرفة إلى غرفة، ومِنْ مَمرٍّ إلى مَمرٍّ. لم يعُد الطّائرُ المِسكينُ يُزقزِقُ مُستَغيثاً البتّةَ، ولم يَعُد يُصفِّقُ بِجَناحيْه إطلاقاً. وأخيراً تَمكَّن السيّدُ دو رِيان مِنْ أنْ يُمسِك بمينون الجميل بواسطة المِلقَط الصّغيرِ. وكانت الضّربةُ قوِيّةً لِلغايةِ ما جعَل شَـدقَه يَنفتِحُ ويَترُكُ العُصفورَ يُفلِـتُ مِنْ قَبضَتِه. وبينَما كان طائرُ الدَّغناشِ يَسقُطُ مِنْ جِهة، كان مينون الجميلُ يَسقُطُ مِنَ الجِهةِ الأُخرى. انتَفض انتِفاضتيْن أو ثلاثَ انتِفاضاتٍ ثمّ لم يأتِ حراكاً؛ كانت المِلقَطةُ قد أَصابَته في رأسه؛ لقد مات.

أمّا السيّدة دو رِيان والطّفلان، وقد كانوا يَجرون خَلف السيّد دو رِيان، في أثَر القطّ وفي أَثَر الطّائر، فقد وَصلوا لَحظةَ الانتفاضةِ الأخيرةِ الّتي أَتاها مينون الجَميل.



فَصاحت صوفي: مينون الجميل، يا لَمينونَ الجَميلِ المِسكين!

وصاح بول: طائرُ الدّغناش، يا لَطائرِ الدّغناش المِسكين!

وصاحت السيِّدة دو رِيان: ماذا فعلتَ، يا رفيقي؟

فأجاب السيِّد دو رِيان: لقد عاقبتُ المُذنِبَ، ولكنِّي لم أستَطع أنْ أُنقِذَ البريءَ. لقد مات طائرُ الدّغناش مُختنِقاً بسبب مينون الجميل، الشّرِّير، الّذي لنْ يَقتُل مخلوقاً في المستقبل، لقد قتلتُه دون أنْ أقصد ذلك.

لم تَجرُؤ صوفي على قَولِ شَيءٍ البتّة، ولَكنَّها بَكَت بِحُرقةٍ قطَّها المِسكينَ، لقد كانت تُحبُّه على عُيوبِه.

وقالت لبول: لقد كنتُ حَذّرتُه أنّ الله تعالى سيُعاقِبُه جَزاءَ أعمالِهِ الشرِّيرةِ تُجاه الطّيور. وا أسفاه! يا لَمينون الجميل المِسكينِ! ها أنتَ ذا قد قضَيتَ نَحبكَ جَرّاءَ خَطئِك!

الفصل الثّامن عشر

صُندوقُ الأشغال

عندما يقع بصَرُ صوفي على بَعضِ الأشياءِ الّتي تُثيرُ رَغبتها، فإنها كانت تطلُب الحُصول عليها. وإذا رَفضت أُمُّها الاستجابة لِطلَبها، كانت تَطلُبُ ثانيةً وثالثةً إلى أنْ تَطرُدها أُمّها، وقد أَضجَرَها ذلك، إلى غُرفتِها. حينئذ، بَدل أنْ تتخلّى عن التّفكير في ذلك نهائيّاً، فإنّها كانت تُفكِّر دائماً وتُردِّد قائلةً:

- ما العملُ لأحصُلَ على ما أُريدُ؟ أنا أَرغبُ في ذلك رغبةً عارِمةً! يجِب أنْ أسعَى لِلحُصول علَيه.

كثيراً ما كانت، في سَعيها للحُصول على مبتغاها، عُرضةً لِلعقاب؛ غير أنّها لا تعملُ على إصلاح غَلطَتها.

وذاتَ يوم نادَتها أُمُّها لِتُريها صندوقاً لِلصّنائع فاتِناً كان السيِّد دو رِيان قَد قام بِإرسالِه مِنْ باريس. كان الصّندوقُ مَصنوعاً مِنَ الصَّدف والذّهب؛ وكان جوفُهُ مغلَّفاً تغليفاً مُضاعَفاً بقُماشٍ مِنَ القَطيفة الزَّرقاء، كان يحتوي على كلّ ما يلزمُ للقيام بالأشغال، وكان كلُّ ما فيه مِنَ الذّهب؛ كان بداخلِه كُشتُبانٌ ومِقصٌّ ومحفظةٌ صغيرةٌ ومِثقَبٌ ووشائعُ خيوطٍ وسكّينٌ ومُديةٌ ومَلاقِطُ صغيرةٌ

ومِخْيَط. وفي دَرَج آخَر منه كان ثَمّة عُلبة إبَر وعُلبة دبابيس مُذهَّبة وذَخيرةٌ مِنْ أَقمِشة الحَرير على ألوانٍ مُختلِفةٍ وخيوطٌ مِنْ أحجامٍ مُختلِفةٍ وحِبالٌ صغيرةٌ وشرائِطُ وغير ذلك.

قالت صوفي: ما أجملَ هذا كلّه! كَم هو مُريحٌ أنْ نَملِك كلَّ لوازم العمل! مَنْ صاحبُ هذا الصّندوق، يا أُمّي؟ أضافت وهي تَبتسِم، كأنّها كانت على يقينٍ مِنْ أنّ أُمّها ستُجيبها قائلةً «إنّه لكِ أنت».

أجابت السيّدة دو رِيان: لقد أَرسلَه أبوكِ إليَّ أنا.

صوفي: يا لَلخَسارة! كم كنتُ أودُّ الحُصولَ عليه.

السيِّدة دو رِيان: آه حسناً! شُكراً لكِ! لقد غضبتِ مِنْ أنْ يكون هذا الصُّندوق الجَميل لي أنا! إنّ في سُلوكِك هذا قدراً من الأَنانيّة.

صوفي: أوه! أُمّاه، أَعطِيني هذا الصُّندوقَ، أَرجوك.

السيِّدة دو رِيان: ما زِلتِ لم تُثابِري بِما فيه الكِفايةُ حتّى تَناليْ مِثلَ هذا الصُّندوقِ الجميل. ثمّ إنّكِ لستِ مُنظَّمةً بِما فيه الكِفاية. أنتِ لا تُرتِّبين شيئاً وتُضيِّعين كُلَّ أغراضِكِ الواحدَ تِلوَ الآخر.

صوفي: أوه لا! أُمّاه، أُؤكِّدُ لكِ؛ سيحظى هذا الصّندوقُ مِنْ قِبلي بعنايةٍ فائِقة.

السيِّدة دو رِيان: لا، يا صوفي، لا تفكِّري في الحصول عليه:

أنتِ صغيرةٌ جدّاً.

صوفي: بدأتُ أشتغِلُ بجدٍّ، يا أُمّاه؛ أُحبّ العمل كثيراً.

السيِّدة دو رِيان: حَقّاً! ولمَ أنتِ على الدّوام تَعتذرين بإلحاحٍ كلّما ألزمتُكِ بشُغلٍ مِنَ الأشغال؟

صوفي: ذلك...، ذلك... لأنّه ليس عندي ما يَلزم حتّى أشتَغِلَ به. ولو كان عندي هذا الصّندوقُ، لكنتُ قد اشتَغلتُ بِسُرورٍ...، أوه! وأَيّ سُرور...

السيِّدة دو رِيان: اعمَلي على أنْ تشتَغِلي بِسُرورٍ من دونِ الصُّندوقِ، وهي الوسيلةُ المُثلى للتّوصّل إلى الحصول على واحدٍ مثله.

صوفي: أوه! أُمّاه، أتوسَّلُ إليكِ!

السيِّدة دو رِيان: صوفي، أنتِ تُضايِقينَني. إنّي أَدعوكِ إلى التخلّي نهائيّاً عن التّفكير في الصّندوق.

سَكتَت صوفي؛ وواصلت النّظر إلى الصّندوقِ، ثمّ أعادت طلَبها على أُمّها أَكثَرَ مِنْ عَشر مرّات. فأَرسلَتها أُمُّها، وقد عيلَ صبرُها، إلى الحديقة.

لمْ تَلعبْ صوفي، ولمْ تَتنزَّه، بل ظلّتْ جالِسةً على مَقعدٍ، وهي تُفكِّر في الصّندوقِ وتَبحَث عَن وَسيلةٍ للظَّفر به.

قالت: لو كنتُ أعرِفُ الكِتابةَ، لَكتَبتُ إلى أبي كيْ يُرسِلَ إليّ

صندوقاً مشابِهاً تَماماً؛ ولكنْ... أنا لا أعرِفُ الكِتابةَ؛ وإذا أَملَيتُ الرِّسالة على أُمّي، فستُوبِّخُني ولن تَقبل كتابتَها... أستَطيعُ جيّداً أن أنتظِر أبي حتّى يعودَ؛ غير أنّه يَنبَغي الانتظارُ فترةً طويلةً جدّاً وأنا أُريد الحُصولَ علَى الصّندوقِ فوراً...

فكَّرت صوفي، فكَّرت طويلاً؛ وأخيراً قَفزت من فوق مَقعدها، وفركَت يديها ثمّ صاحت قائلةً:

- وَجدتُها، وَجدتُها. سيكون الصُّندوقُ لي أنا.

ها هي صوفي تعود إلى غرفة الاستقبال، كان الصّندوق قد بقِي فوق الطّاولة؛ ولكنّ الأمَّ لم تكنْ مَوجودةً. تَقدّمت صوفي بِحذرٍ، فَتحت الصّندوقَ وأخرجت كلّ الأشياء التي كانت بداخله واحدةً تِلو الأخرى. كان قلبُها يَخفِق، لأنّها كانت مُقدِمةً على السّرقةِ مثلَ اللّصُوص الّذين يُرمى بهم في السِّجن. كانت خائفةً مِنْ أنْ يدخُل أحدُهم قبل أنْ تُتِمَّ صنيعَها. ولكنَّ أحداً لم يأتِ؛ واستطاعت صوفي أنْ تأخُذ كلَّ ما كان في الصّندوق. وبعدما قامت بأخذ كلِّ شيء، أَغلَقت الصّندوق بِهدوءٍ، وأَعادته إلى مَوضِعه وسط الطّاولة، وذهبت إلى صالةٍ صغيرةٍ حيث كانت لُعَبُها وأثاثُها الصّغيرُ؛ فَتحت الدُّرْجَ في طاولتها الصّغيرة وأَخفت في داخِله كلّ ما كانت قد أَخذته مِنْ صندوق أمِّها.

قالت: لن يَكون لأُمّي سِوى صندوقٍ فارِغٍ وعندها فإنّها

ستَقبل طَوعاً أنْ تُعطيَني إيّاهُ؛ وآنذاكَ سأَضع فيه ثانِيةً كلَّ شيء.، وسيكونُ الصّندوقُ الجميلُ في حَوزتي!

لم تُفكِّر صوفي، وكانت مُنتَشِيةً بِهذا الرَّجاءِ، حتّى في أنْ تلوم نفسَها على ما اقترفته؛ لم تُسائلْ نفسَها: «ماذا ستقول أمِّي؟ مَنْ ستتَّهمُ بِسرِقة أغراضِها؟ بِماذا سأُجيبُ عندما سأُسألُ عمّا إذا كنتُ أنا الفاعِلة؟» كلاّ، لمْ تُفكِّر صوفي إلاّ بسعادَتها بِحيازتِها للصّندوق.

مرَّت فترةُ الصّباح كلُّها دون أنْ تتفطّن الأمّ إلى سرِقة صوفي؛ غير أنّه خلال وقت العَشاء، عندما كان الجميعُ مُجتمِعين في غرفة الاستقبال، أَخبرَت السيِّدة دو رِيان مَن كانت قد استَدعت لِلعَشاء أنّها ستَعرِضُ عليهم صندوقاً لِلوازِم الأشغالِ جَميلاً لِلغايةِ كان السيِّد دو رِيان قد أَرسلَه إليها مِنْ باريس.

وأَضافت قائلةً: ستَرَون كمْ هو مكتمِلٌ؛ به كلُّ ما هو ضَرورِيٌّ لِلقيام بِأيّ شُغل. أُنظُروا بادِئَ ذي بَدءٍ الصّندوقَ ذاتَه؛ كم هو جميلٌ!

وأجاب الجميعُ: إنّه لطيفٌ، إنّه لطيف!

ثمّ فَتحته السيِّدة دو رِيان. وما أشدَّ دَهشتَها، ودَهشةَ المُحيطين بها، لمّا وَجدت الصّندوقَ فارِغاً.

قالت: ماذا يَعني هذا؟ هذا الصَّباح، كان كلُّ شَيء بداخِلِه،

ولمْ أَمسَّه مُنذ ذلكَ الحين.

سأَلتها إحدى المَدعوّاتِ: هل كنتِ تركتِه في غرفة الاستقبال؟

السيّدة دو رِيان: أنا علَى يَقينٍ مِنْ ذلكَ، دون شكّ؛ كُلُّ الخَدَم عندي أُمناءُ ولا يُمكِنُهم أنْ يَسرِقوني.

السيِّدة: ومع ذلكَ فالصّندوقُ فارغٌ، يا سيِّدتي العزيزةَ؛ فمِنَ الأكيد أنّ أحدَهم قد قام بإفراغِه.

صار قلبُ صوفي يَخفِق بِشدّةٍ أثناءَ هذه المُحاورةِ؛ ظلَّت مُتوارِيةً عن أنظارِ الجميع، وهي مُحمرَّة الوجه بلَون الفُجلة، ومُرتَعدةُ الفَرائصِ.

ونادت السيِّدة دو رِيان، وقد كانت تُفتِّش عنها بناظِريْها ولا تعثُرُ لها على أثَر: صوفي، يا صوفي، أين أنتِ؟

ولّما لمْ تُجِب صوفي النِّداءَ، ابتَعدت السيّداتُ، اللاّئي كانت مُختبئةً وراءهُنّ، واللاّئي كنّ يَعلَمن أنّها هناكَ، جانباً، وانكشفت صوفي في هيئة مُزرِية مِنَ الِاحمرار ومِنَ الِاضطراب، حتّى أنّ كلَّ واحد قد أدرك دون عَناءٍ أنّ السّارِقَ هو صوفي عَينَها.

قالت السيّدة دو رِيان: اقترِبي، يا صوفي.

تَقدّمت صوفي في خَطْوٍ مُتثاقِلٍ؛ كانت ساقاها ترتعِشان.

السيّدة دو رِيان: أين وضعتِ الأشياءَ الّتي كانت في صندوقي؟

صوفي، مُرتعِشةً: لم آخُذ شيئاً، يا أُمّي، لم أخبِّئْ شيئاً.

السيّدة دو رِيان: لا جَدوى مِنَ الكذب، يا آنسة؛ أرجِعي كلَّ شيءٍ الآن، إنْ كنتِ لا تَرغَبين في أنْ تُعاقَبي عِقاباً تستحقّينه.

صوفي، باكيةً: ولكنْ، يا أمّي، أؤكِّد لكِ أنّي لم آخُذ شيئاً.

السيّدة دو رِيان: اِتبَعيني يا آنسة.

لمّا ظلَّت صوفي دون حَراكٍ، أمسكتها السيِّدة دو رِيان مِنْ يدها وجرَّتها رغمَ مُقاومتِها نحو صالون اللُّعَب ثمّ شرعت تفتِّش في أدراج الخزانة الصّغيرة، ثمّ في خزانة الدُّمية؛ ولمّا لم تعثُر على شيءٍ بدأت تخشَى أنّها قد ظلمت صوفي، كان ذلك حينما كانت مُتَّجِهةً صوبَ الطّاولة الصّغيرة. صارت صوفي ترتعد بقوّة حين لَمحت أمَّها تَفتَحُ الخِزانة وتَجِدُ كلّ الأدواتِ الخاصّةِ بصندوقِ الأشغال، لقد خبّأتها صوفي هناك.

ودون أنْ تقول السيِّدة دو رِيان شيئاً، أَمسكت صوفي وضربتْها كما لمْ تكن قد ضربتها مِنْ قَبلُ. وكانت صوفي تصرُخ عالياً، وتلتمِسُ العَفوَ، ولكنّها نالت عِقابَها من الضّرب، فلا بدّ أنْ نَقرَّ أنّها كانت تَستحقّ ذلك.

أَفرَغت السيِّدة دو رِيان الخِزانة وحَملت كلّ ما كانت قد وَجدته، لِتَردَّه إلى صندوقها، وقد تركت صوفي تبكي وحيدة في غرفة الاستقبال الصّغيرة.

لقد كانت من الخجل بحيثُ لمْ تعُد تجرُؤ على الرّجوع لِلعَشاء؛

ولقد أَحسنَت صُنعاً، لأنّ السيِّدة دو رِيان أرسلت إليها مُربِّيتها كي تحمِلها إلى غرفتِها، حيث كان عليها أنْ تتعشّى وتُمضي السّهرة. كانت صوفي تبكي طويلاً؛ كانت المربِّية، رَغم حبّها لها، مُغتاظةً ونعتَتها بالسّارِقة.

كانت تقول: يَجِب أنْ أُغلِق كلّ شيءٍ بالمفتاح، خوفاً مِنْ أنْ تَسرِقيني. وإذا فُقد شيءٌ ما في المنزل، فسنَعرف جيِّداً كيف نعثُر على السّارِق وسنَذهب مُباشرةً لِلتّفتيشِ في أدراجِكِ.

وفي الغد، استَدعت السيِّدة دو رِيان ابنتَها صوفي.

وقالت لها: اِسمَعي، يا آنسة، هذا ما كتَبه أبوكِ إليَّ عندما



أَرسَل صندوق الأشغال:

«رفيقتي العزيزةَ، قُمتُ بشراء صندوقٍ لَطيفٍ لِلوازمِ الأشغالِ، هو ذا الّذي أُرسلُه إليك. هو لِصوفي، ولكنْ لا تقولي لها ذلكَ ولا تُعطيها إيّاه فوراً. وليكن مُكافأةً تُمنَح لها جَزاءَ ثمانيةَ أيّامٍ مِنَ التّعقُّل. أَريها الصّندوقَ، ولكنْ لا تذكُري لها أنّني اشتَريتُه لها. لا أُريدُها أَنْ تكونَ مُتعقِّلةً لِقاءَ مَنفَعةٍ، ولكيْ تفوزَ بِهديّة جميلة؛ أُريدها أنْ تكون كذلك بِدافِعِ رَغبةٍ صادِقةٍ في أنْ تَكونَ طيِّبةً...»

وواصلَت السيِّدة دو رِيان قائلةً: تَريْن أنّكِ بِسرقتي، قد قُمتِ بِسرقَة نفسِكِ بِنفسِك. وبعدَ الذي اقترفتِه، يَنبَغي علَيكِ المُكوثُ مُتعقِّلةً مُدّةَ شهور، ومع ذلك فلَن تَنالَيْ هذا الصُّندوقَ أبداً. أرجو أنْ ينفعَك هذا الدّرسُ فلا تُكرِّري ما تأتين من الأفعال المُخزِية.

بَكت صوفي ثانيةً، واستعطَفت أمَّها أنْ تُسامِحِها. وانتَهت الأمُّ إلى أنْ تَقبل اعتِذارَها، ولكنّها لم تُوافِق البتّة على إعطائها الصّندوقَ؛ ستَهبُه في الأيّام القادِمةِ إلى الصّغيرةِ إليزابيت شينو، فقد كانت هذه الصّبيّةُ تَشتَغل بامتيازٍ وكانت على تَعقُّل ساحرٍ لِلألباب.

ولّما علِم الصّغيرُ بول، هوَ الصّبيُّ الطيِّبُ الأمينُ، ما كانت فَعلَته صوفي، استَشاط غَيظاً حتّى أنّه أَمضى ثَمانيةَ أيّامٍ لا يرْغب

في الذّهاب إلى منزلها. ولكنّه، ما إنْ علِمَ كمْ كانت حزينةً ونادِمةً، وكمْ كانت تشعر بالعار مِنْ وَصمِها بِالسّارِقة، حتّى رَقَّ قلبُه الطيِّبُ لأجلِها؛ وذهب لِرُؤيتها؛ وعِوضَ أنْ يؤنّبَها، واساها قائلاً:

- هل تعلَمين، يا صوفي المِسكينة، الوسيلةَ التي تُنسينَ بِها الجميعَ سرقتَكِ؟ هي أن تكوني أمينةً أمانةً مُطلَقةً، حتّى لا يستطيعَ أحدُهم أنْ يَرتاب بكِ مُجرَّدَ ارتيابٍ في المُستقبل.

وَعَدتْه صوفي أنْ تكونَ أَمينةً جدّاً، ووَفَت بِوعدِها.

الفصل التّاسع عشر

الحِمار

كانت صوفي مُتعقِّلةً جدّاً منذُ خمسةَ عشر يوماً؛ ولم تكُن قد اقتَرفت خطأً كبيراً واحداً؛ وكان بول يَذكُر أنّها لم تكُن انخَرطت في نَوبةٍ مِنَ الغضب مُنذ وَقتٍ طويلٍ؛ وكانت المُربِّية تقول إنّها أصبحت مُطيعةً. أمّا الأمّ فقد وجدت أنّها لم تعُد شرِهةً، ولا كاذِبةً، ولا كسولاً، وكانت تريد أنْ تُكافئ صوفي، ولكنّها لم تكُن تعلَم أيّ مكافأة يُمكِن أنْ تُحقِّق لها البَهجةَ.

وذاتَ يومٍ بينما كانت في شُغلٍ شاغِلٍ، ونافذةُ غرفتها مفتوحةً، وبينما كانت صوفي وبول يَلعَبانِ أَمامَ المَنزل، تناهَت إلى سَمعِها مُحاورةٌ أَعلَمتها بِما كانت صوفي تَرغَب فيه.

بول، وهو يَمسح وجهَه: يا للسّخونة! يا للسّخونة! إنّني أَتصبّبُ عَرَقاً.

صوفي، وهي تَمسحُ وَجهَها أيضاً: وأنا أيضاً! ومع ذلك لم نُنجِز مِنَ الأشغالِ الكثير.

بول: ذلكَ لأنّ نَقّالَتَيْنا صَغيرتان لِلغاية!

صوفي: إنْ نحنُ استعملنا نقّالات البُستانيّ الكبيرةَ، فسنَتَنقَّلُ بِطريقةٍ أَسرعَ.

بول: لن تكون لدينا القوّةُ الكافِيَةُ لِجرِّها؛ أردتُ يوماً أنْ أَجُرّ واحدةً، فوَجدتُ صُعوبةً في زَحزَحتها، ولمّا أردتُ أنْ أَتقَدّم بِها، جَذبَني وزنُ النقّالةِ، فاختَلَّ توازُني، وانصبّ كُلُّ التُّرابِ الّذي كان داخلَها.

صوفي: ولكنَّ حَديقتَنا لن تُشرِفَ أبداً على النِّهاية؛ فقَبلَ حَرثها وزِراعتها، يتوجّبُ علينا أنْ نَنقُل إليها أَزيَدَ مِنْ مائة نقّالة مِنَ التُّربة الخِصبة. وهي مَوجودةٌ في مَكانٍ بَعيدٍ لِلغايةِ، أبعد من أن نتمكّن من الذّهاب إليه للبَحثِ عنها.

بول: ماذا تُريدين أنْ نَفعَل؟ سيكون العملُ طويلاً، ولكنَّنا سنَفلَح أخيراً في إنجازِه.

صوفي: آه! لو كانَ عِندَنا حمارٌ، مِثل كاميليا ومادلين دو فلورفيل، ومعَه عربةٌ صغيرة! عندئِذ يُمكِن أنْ نُنجز الشّغل في وَقت قصير!

بول: هذا صحيحٌ! ولكنْ ليس لدينا حمار. يَجب علينا أنْ نُنجز نَحن شُغلَ الحمار.

صوفي: اِسمعْ، يا بول، عندي فكرة.

بول، ضاحكاً: إنْ كانَ لَديكِ فكرةٌ، فنَحن على يَقينٍ مِن ارتِكاب بعضِ الحماقات، لأنّ أفكاركِ ليست على العُموم خَلاّقة.

صوفي، وقَد عيل صبرُها: ولكنْ اسمَع، قبل أنْ تَسخَر مِنّي. إنّ فكرتي مُمتازة. كمْ تَهبُكَ خالتي مِنَ المال كلَّ أُسبوع؟

بول: فِرنكاً واحداً؛ ولكنَّه مِنْ أَجل التَّصدُّق بِه على الفُقراء، وهو كذلك مِنْ أجل أَنْ أَستَمتِع.

صوفي: حَسناً! أنا أَيضاً أحصُل على فِرنكٍ؛ ما مجموعُه فِرنكان كلّ أسبوع. وعِوضَ أنْ نُبذِّر أَموالنا، لِنَحتفِظْ بها إلى أنْ نَستطيعَ اشتِراءَ حِمارٍ وعَربةٍ.

بول: فكرتُكِ جيِّدةٌ لو كان لَدينا بَدل الفِرنكيْن عشرون فِرنكاً؛ ولكنْ بِواسطة فرنكيْن لن نَستطيعَ البتّةَ أنْ نتصدّق على الفقراءِ، وهو ما سيَكونُ أمراً مُحزِناً، ثمّ إنّه سيكونُ علينا أنْ نَنتظِر عاميْن كامِليْن قَبلَ أنْ نَحصُل على ما به نَشتَري حماراً وعربةً.

صوفي: فِرنكان كلَّ أسبوع، ما مَجموعُ ذلكَ في الشَّهر؟

بول: لا أعلَم بِالضّبطِ، ولكنّي أعلَمُ أنّه نَزرٌ قليلٌ جدّاً.

صوفي، وهي تُعمِلُ فِكرَها: حسناً! إليكَ فِكرة أخرى. لَو طَلَبنا مِنْ أُمّي ومِنْ خالتي أنْ تُعطِيانا على الفَور النّقودَ المُخصَّصةَ لِهديّةِ رأسِ السَّنة.

بول: لَنْ تَقبلاَ بِذلك.

صوفي: لنَطلُبْ مِنهُما ذلكَ على كُلِّ حال.

بول: اطلُبي أنتِ إنْ كُنتِ تُريدينَ؛ أنا أميلُ إلى انتظار ما

ستُجيبُكِ به خالتي؛ فلن أطلُب مِنْ أُمّي إلاّ إذا أجابت خالتي بالقَبول.

رَكضَت صوفي نَحو أُمِّها، وقد تَظاهَرت بِأنّها لم تسمع شيئاً.

قالت صوفي: أُمّاهُ، أَتقبَلينَ أنْ تَهَبيني هديّةَ رأسِ السَّنة مُسبَقاً؟

السيِّدة دو رِيان: هديّةَ رأسِ السَّنة؟ أنا لا أَستطيعُ أنْ أَشتَريَها لكِ هنا؛ سيكونُ في مُستَطاعي ذلكَ عِندَ عَودتِنا إلى باريس.

صوفي: أُوه! أُمّاهُ، أُريدكِ أنْ تَهَبيني النُّقودَ المُخصَّصة لِهديَّة رأسِ السَّنةِ؛ أنا في حاجَةٍ ماسّةٍ إليها.

السيِّدة دو رِيان: كيف لكِ أَنْ تكُوني في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى كثيرٍ مِنَ المالِ؟ إنْ كان ذلكَ مِنْ أَجلِ الفُقراء، فَصارِحيني بِذلكَ، سأمُدُّكِ بِما يلزمكِ؛ تَعلَمين أَنّني لا أَرفُضُ لكِ طلَباً يَخصُّ الفُقراء.

صوفي، مُضطرِبةً: أُمّاهُ، الأمر لا يَخُصّ الفُقراء؛ إنّهُ...، إنّهُ مِنْ أَجل اشتِراء حمار.

السيِّدة دو رِيان: حمار؟ ولِمَ؟

صوفي: أُوه! أُمّاهُ، نحن في أمسّ الحاجةِ إليهِ، أنا وبول! ترَيْن كم أنا مُبلَّلةٌ بالعرَق وأحسّ بالسّخونة، وبول أيضاً يحسّ بالسّخونةِ أكثرَ منّي. وذلكَ لأنّنا نَقلنا التُّربةَ تَهيئةً لِحَديقتِنا.

السيِّدة دو رِيان، وهي ضاحِكةٌ: أوَ تظُنِّين أنَّ حماراً سينقُلُ التّربةَ بَدلاً عنكِ؟

صوفي: لا يا أُمّي! أُدركُ جيِّداً أنّ حماراً لا يقدرُ على أنْ ينقُل التّربةَ بنقّالةٍ؛ ذلكَ أنّي لم أقُل لكِ أنّه تَلزمُنا مع الحمار عَربةٌ، سنُسرِجُ عليها حِمارَنا وسنَنقُلُ كثيراً مِنَ التُّربةِ دونَ عَناء.

السيِّدة دو رِيان: أعترِفُ أنّ فكرتَكِ جيِّدة.

صوفي، وهي تُصفِّقُ بكِلتا يَديْها: آه! كنتُ أعلَم عِلمَ اليقينِ أنّها فكرةٌ جيّدةٌ... ثمّ أضافت قائلةً وهي تُنادي مِنَ النّافذةِ: بول، يا بول!

السيِّدة دو رِيان: اِنتظري قبلَ أنْ تَبتهِجي. فكرتُكِ جيِّدةٌ، ولكنِّي لا أَرغبُ في أَنْ أَهَبَ لكِ النُّقودَ المُخصَّصة لِهديّةِ رأسِ السّنة.

صوفي، وهي ذاهِلةٌ: ولكنْ حينئذ... ماذا نَحنُ فاعِلون؟...

السيِّدة دو رِيان: ستَظلِّيْنَ هادئةً تماماً وستُواصلين سلوكَكِ المُتعقِّلَ حتّى تكوني جَديرةً بِالحمار والعَربة الصّغيرة، اللّذين سأشترَيهما لكِ في أقربِ وقتٍ مُمكِنٍ.

صوفي، وهي تَقفِزُ فرِحةً وتُقبِّلُ أمَّها: يا لَلسّعادةِ! يا لَلسّعادةِ! شُكراً لكِ يا أُمّي الحبيبة. بول، يا بول! لدينا حِمارٌ، لدينا عربةٌ... تعالَ إذاً، تعالَ بِسُرعة!

بول، وهو يركُض: أين إذاً، أين إذاً؟ أين هما؟

صوفي: أُمّي وَهَبتْهُما لنا؛ ستَعملُ على اشتِرائهما لنا.

السيِّدة دو رِيان: أجل، سأهبُهما جزاءً لِكلَيْكما: لكَ، أنتَ يا بول، لُكافأتِكَ جزاءَ طيبتِكَ، وطاعتِكَ، وتعقُّلِكَ؛ ولكِ، أنتِ يا صوفي، كيْ أُشجِّعكِ على مُحاكاة ابن خالتك وعلى أنْ تَظهَري على الدّوامِ بمَظهَر اللّطيفةِ، المُطيعةِ والمُجتهِدةِ، مثلما أنتِ عليه مُنذ خمسةَ عشر يوماً. تعالَيا معي نبحثُ عن لامبير؛ سنَشرحُ له قَضيّتَنا وسيَشتري هو حمارَكما وعربتكما.

لم يَنتَظر الطّفلان أَنْ يُعاد لهُما الأمرُ مرّةً ثانيةً فيتَثبّتا مِنه، بل جَرَيا إلى الأمام؛ فعثَرا على لامبير في وسط الحوش، حيثُ كان يزِنُ العَلَف الّذي قام بشرائه. انبَرى الطِّفلان يَشرحان له بكثير من الحَماسِ ما كانا يُريدان. كانا يتكلّمان معا بسرعةٍ وفي وقت واحدٍ، حتّى أنّ لامبير لم يَفهم شيئاً. كان يَنظُر في اندهاشٍ إلى الطّفليْن وإلى السيِّدة دو رِيان، الّتي شرعت أخيراً في الكلام وفسّرتْ كُنهَ الأمرِ إلى لامبير.

صوفي: هيّا على الفَور، يا لامبير، أَتوسّلُ إليكَ؛ إنّنا نحتاجُ إلى حِمارِنا فوراً، قبل العَشاء.

لامبير، ضاحِكاً: لا نعثُرُ على الحمارُ مثلما نعثُرُ على رغيفِ الخُبز، يا آنسة. يجِب أنْ أَعلَمَ إنْ كان ثمّةَ منها ما هو لِلبيع،

وأنْ أَسعى في طلَبها في كلّ الضَّواحي، حتّى أعثُر لكُما على حمارٍ لطيفٍ، لا يَرمَحُ، ولا يَعَضُّ، ولا يكونُ عنيداً البتّةَ، ولا يكون صغيراً جدّاً ولا طاعِناً في السّنّ.

صوفي: يا إلهيّ، ما أَكثَر ما يتَطلَّبُه اشتِراءُ حمارٍ! اقتنِ أوّلَ حمارٍ تعثر عليه، يا لامبير؛ وسيَسهُل بِذلكَ إنجازُ الأَمرِ سَريعاً.

لامبير: لا، يا آنسةُ، لن أَشترِيَ أَوّلَ حمارٍ أعثر عليه، فسأُعرِّضُكِ بِذلكَ إلى العَضِّ أو إلى رفسةٍ بِالحافر.

صوفي: أفّ! سيَعرِفُ بول جيِّداً كيف يُرَبِّيه.

بول: ولكنْ هذا غيرُ ممكنٍ البتَّة؛ أنا لا أريد أنْ أقودَ حماراً يَعَضُّ ويَرمَحُ.

السيِّدة دو رِيان: أتركُا لامبير يقوم بعملِه يا ولدَيَّ؛ ستَريان أنَّ ما تُريدان اشتِراءَه سيتمُّ على أَحسنِ ما يُرام. هو مَشهودٌ له في هذا المَجالِ ولن يَدّخِر لأجل ذلكَ وُسعاً.

بول: والعربةُ، يا خالتي؟ كَيف السّبيلُ إلى الحُصولِ علَى عربةٍ صغيرةٍ حتّى نُسرِجَ الحمارَ عليها؟

لامبير: لا تشغَل بالَكَ، يا سيّد بول؛ ففي انتِظارِ أنْ يصنع نجّارُ العربات واحدةً، سأُعيرُكَ عربتي الكبيرةَ المُخصَّصةَ لِلكلابِ؛ اِحتفِظْ بِها قَدرَ ما تَشاءُ.

بول: أوه! شُكراً، يا لامبير؛ سيَكونُ ذلِكَ لَطيفاً.

صوفي: اِنطلِق، يا لامبير، اِنطلِق سَريعاً.

السيِّدة دو رِيان: امنَحيه الوقتَ حتّى يجمع عَلفَه؛ فإنْ هو تَرَكَه في وَسط السّاحة، فإنّ الدَّجاجَ والعَصافيرَ ستأكلُه.

رصَّف لامبير أكياس العلَف في جوف المَخزن، ولمّا رأى أنّ الطِّفليْنِ قد نفدَ صبرهُما، انطلَق لِيقتنِيَ حماراً في الضّواحي المُجاوِرة.

ذهب في ظنِّ صوفي وبول أنّه سيَؤُوبُ في لَمحِ البَصر، وهو يَقود حماراً؛ فبقِيا أمام المنزل في انتظاره. كانا مِنْ حين إلى آخر يذهَبان لِينظُرا في السّاحة إنْ كان لامبير قد عاد؛ وبَعدَ مُضيٍّ ساعةٍ بَدآ يُدرِكان أنَّه لَيس أَبعَثَ على الضَّجَر مِن الانتظارِ ومِنَ التّخلِّي عنِ اللَّعب.

بول، مُتثائباً: ما رأيكِ، يا صوفي، لو نَحنُ ذَهبنا لِلَّهو في حَديقتِنا؟

صوفي، مُتثائبةً: أَلَسنا بِصددِ اللَّهو هنا؟

بول، مُتثائباً: لا أظنُّ ذلك. بِالنِّسبة إليّ، أنا على بيِّنةٍ مِنْ كَوني لَستُ بِصددِ اللَّهو مُطلقاً.

صوفي: وإذا عاد لامبير ومَعه الحِمار، فسوف لن نَراه.

بول: بَدأتُ أَقتنِعُ أنّه لن يَعود باكِراً.

صوفي: أنا، أَعتقدُ، بِخلاف ذلكَ، أنّه سيعود.

بول: أودُّ الانتظار،... ولكنْ (يتثاءبُ)... هذا مُضجِرٌ لِلغاية.

صوفي: اذهبْ، إنْ كنتَ ضجِراً؛ أنا لا أطلُب مِنكَ البقاءَ، سأبقَى بمُفردي.

بول، بعد تردُّد: حسناً! سأذهبُ، اُنظُري؛ مِنَ السّذاجة أنْ يُهدِرَ أحدُنا يَومه وهو يَنتظر. ومِنْ أَجل ماذا؟ إنْ جلَب لامبير حماراً، فإنّنا سنَعلمُ بِذلكَ علَى الفورِ؛ تَذكُرين مَليّاً أنّهم سيأتون إلينا لإخبارِنا بذلكَ في الحديقة. وإذا لمْ يَجلِب حماراً، فماذا يُجدي أن نُضجِر أنفُسَنا دون مُقابل؟

صوفي: هيّا، يا سيدي، اذهبْ، أنا لا أَمنعُكَ مِنْ ذلك.

بول: آه، باه! أنتِ مُستاءةٌ دون سبب. إلى اللِّقاءِ، عند العَشاءِ، يا آنسة مُتذمِّرة.

صوفي: إلى اللِّقاءِ، أيُّها السيِّدُ الفَظُّ، العَبوسُ، البغيضُ، الوَقِحُ.

بول، وهو يُشير إشارةً ساخِرةً: إلى اللِّقاء، يا صوفي اللّطيفةُ، الصَّبورةُ، المَحبوبةُ!

جَرتْ صوفي نَحوَ بول تُريدُ أنْ تَصفَعه صَفعةً؛ ولكنَّ بول، وقد قدَّر ما كان يَتهدَّدُه، كان قد انصرَف وهو يُسرِع في العَدو. وعندما التفَت يَستطلِعُ إنْ كانت صوفي تَتبع خُطاهُ، شاهَدها تَجِدُّ

في أَثَره وهي تُمسكُ بِعَصاً كانت قد التقَطتها. أسرع بول العدْوَ واختبأ في الغابة. ولمّا لم تعُد صوفي تراهُ، عادت أمام المَنزل.

وفكّرت قائلةً: يا لَلسّعادةِ، لقد نَجا بول بِنَفسِه، ولم أستطِع الإمساكَ به! كان يُمكِنُ أنْ أُسدِّدَ له ضَربةً بِالعصا كانت ستُسبِّب له أَلماً؛ وكانت أُمّي ستَعلَمُ بِالأمرِ، ولن تَرغب في مَنحي الحِمارَ والعربة. عندما يرجع بول، سأُقبِّلُه... هو طيِّبٌ جدّاً... ولكنّه مع ذلكَ مُناكِدٌ جدّاً.

واصلتْ صوفي انتِظارَ لامبير حتّى دقَّ الجرسُ مُعلِناً عن مَوعِدِ العَشاء.

رَجعَت غاضِبةً، لقد انتَظرت طويلاً جدّاً دون جَدوى. نَظَر إليها بول، وقد وَجَدته في غُرفتها، نِظرةً ساخِرة.

وخاطبها قائلاً: هل استَمتَعتِ مَلِيّاً؟

صوفي: لا، لقد ضَجِرتُ كثيراً، وكنتَ على صوابٍ عندما رغبتَ في الذّهاب. لامبير هذا لن يعودَ، هذا مُمِلّ!

بول: كنتُ قد ذكرتُ لكِ ذلك.

صوفي: إي نَعَم، كنتَ قد ذكرتَ لي ذلكَ، أنا أعلَمُ ذلكَ جيِّداً. ولكنّ الأمرَ مع ذلكَ مُملٌّ جدّاً.

قُرِع الباب. فصاحت المُرَبِّيةُ: ادخُلْ. وفُتِح الباب. ظهر لامبير. وأَطلَقَ كلٌّ من صوفي وبول صَرخَةَ الفَرح.

وتساءل الطِّفلان: والحمارُ! أَين الحمار؟

لامبير: ليس ثمَّة حمارٌ لِلبيع في البلْدة، يا آنسةُ؛ ظللتُ أسيرُ منذ أنْ غادرتُكما؛ وبحثتُ في كلِّ مكان حسِبتُ أنّ فيه حماراً. فلم أجِدْ شيئاً.

صوفي، وهي تبكي: يا لَلهولِ، يا إلهي، يا لَلهولِ! ما العملُ الآنَ؟

لامبير: ولكنْ لا تحزَني، يا آنسةُ؛ سنظفَر بواحدٍ، بالطّبع؛ يجِب علينا فقط أنْ ننتَظِر.

بول: كم علينا أن ننتَظرَ مِنَ الزّمن؟

لامبير: رُبّما أسبوعاً، أو أسبوعيْن، هذا رَهينُ الظّروف. غداً سأذهبُ إلى السّوقِ، في المدينة؛ لعلَّنا نعثُر على جَحش.

بول: جَحش! ما مَعنى ذلكَ، جَحش؟

لامبير: عجباً، لا تعرِفُ ذلكَ، أنتَ الفَهيم؟ الجَحشُ هو ولَد الحِمار.

صوفي: هذا طريفٌ، جَحش! أنا أيضاً لم أكن أعرِفُ ذلك.

لامبير: آه! هكذا، يا آنسةُ! كلَّما كبُرنا ازدَدْنا عِلماً. سأذهب لِلعُثور على أُمِّكِ لأُخبِرها أنّه في الغد، ومنذ الصّباح الباكر، عليّ أنْ أَذهب إلى السّوقِ مِنْ أَجل اقتِناءِ الجَحش. إلى اللِّقاء، سيِّدي وآنِستي.

خرج لامبير، تارِكاً الطِّفلَيْن مُتضايِقيْن مِنْ عدم الحُصولِ على حمارِهما.

قالا وهما يَتنهَّدان: قد نَنتظِره طويلاً.

مَضت صبيحةُ اليومِ التالي في انتِظارِ الحمار. وقالت لَهما السيِّدةُ دو رِيان مِراراً إنَّ الأمر يَجري على الدَّوام هكذا، وإنَّ مِنَ المُحال أنْ نُحصُل على كلِّ ما نَرغَب فيه منذ الوهلة الأولى، فعلينا أنْ نُعوِّد أنفُسَنا على الانتظار، وحتَّى على عدم الحُصولِ أحياناً على ما نرغَب فيه؛ أجاب الطِّفلان: هذا صحيحٌ، ولكنّ شَوقهما للحمارِ لم يفْتُر وكانا يَنظُران بفارِغِ الصَّبر إنْ كان لامبير قد عاد ومعَه حمار. وأَخيراً، خُيِّل لبول، وقد كان عند النّافذةِ، أنَّه سمِع مِنْ بَعيدٍ نهيقاً لا يُمكِنُ أنْ يصدُر إلاّ عن حمار.

فصاح قائلاً: صوفي، يا صوفي، اِسمَعي. هل سمِعتِ حماراً يَنهَقُ؟ لعلَّه لامبير.

السيِّدة دو رِيان: رُبّما هو حمارٌ مِنَ البلدةِ، أو هو حمارٌ يَسيرُ على الطّريق.

صوفي: أوه! أُمّاه، اِسمَحي لي بالذّهابِ كيْ أَنظُر إنْ كان هو لامبير ومعه الجَحش.

السيِّدة دو رِيان: الجَحشُ؟ ما هذه الطّريقةُ الفَجّةُ في الكلام؟ لا يوجدُ غير سكّانِ الأرياف مِمّنْ يُسمُّون الحمارَ جَحشاً.

بول: خالتي، إنّه لامبير الّذي أخبرنا أنّ الحمار يُسمَّى جَحشاً، وقد اندَهش لما رأى أننا نجهل ذلك.

السيِّدة دو رِيان: لامبير يَتكلَّم مِثلَ سُكّانِ الرِّيف، ولَكنْ أنتُما تَعيشان في وسَطٍ متعلِّم، وعليكُما التّكلُّمُ بِطريقَة أَكثرَ لِياقة.

صوفي: أوه! أُمّاه، ما زِلتُ أَسمَعُ النّهيق! إنَّهُ الحمار؛ هل نَستطيعُ الذّهابَ لِمُشاهدةِ ذلك؟

السيِّدة دو رِيان: اِذهبا، يا طِفلَيَّ؛ لكنْ لا تَبلُغا الطّريق الرّئيسيّة: لا تتجاوزا الحاجز.

اِنطلَق صوفي وبول كالسَّهم. ركَضا عَبر الأَعشابِ وأشجارِ الغابةِ، حتّى يُسرِعا بالوُصول. وكانتْ السيِّدةُ دو رِيان تَصيحُ بِهما: «لا تذهبا ناحية الأعشابِ، إنّها عاليةٌ جدّاً؛ لا تجتازا الغيْضَة، ثَمّةَ الأشواكُ». ما كانا يَسمعان وكانا يَركُضان، ويَقفِزان كالأيائل. ووَصلا سريعاً إلى الحاجزِ، وأوّلُ ما وقَع علَيه نَظرُهما على الطّريق الرّئيسيّة، كان لامبير، وهو يَقودُ مِنْ طَرفِ زِمامٍ حماراً رائعاً، ولَكنّه مع ذلك لم يكن كبيراً جدّاً.

وأخذا يَصيحان سوِيّاً: حمارٌ، هذا حمارٌ! شُكراً يا لامبير، شُكراً! يا لَلسّعادة.

وقال بول: ما أجملَه!

وقالت صوفي: لشدَّ ما يبدو طيِّباً! هيّا بِسرعةٍ نُخبِر أُمّي بالأمر.

لامير: إليكَ، يا سيِّد بول، اِركبْ فوقَه؛ الآنسة صوفي ستركبُ وراءكَ؛ وسأُمسِكُه أنا مِنْ لِجامه.

صوفي: ولكنْ إذا نحنُ سقَطنا؟

لامير: آه! ليس هناكَ مِنْ خطر، سأسيرُ بِالقُرب مِنكُما. لقَد بيعَ لي على اعتبارِ أنّه جَحشٌ كامِلُ الأوصاف ولَطيفٌ لِلغاية.

ساعَد لامير بول وصوفي على رُكوب الحمار؛ وأَخذ يَسير قريباً مِنهُما. وهكذا وصلوا حتّى أسفَل نوافِذ غُرفة السيِّدة دو رِيان.

اِقتادوا الحمارَ إلى الإسطبل؛ وأَعطاهُ صوفي وبول العلَف؛ وهيّأ له لامير مِنَ التِّبن فراشاً وثيراً. كان الطِّفلان راغبيْن في المُكوث هناكَ لِمشاهَدته وهو يأكُل؛ ولَكنّ مَوعد العَشاء كان يقترِب. وكان ينبَغي غسلُ اليديْن، وتمشيطُ الشّعر، فكان أنْ تُركَ الحمارُ في صُحبة الخُيول حتّى يوم الغَد.

وفي الغد وما تلاه من الأيّام، أُسرِج الحمارُ إلى العربة الصّغيرة المُخصَّصة للكلاب، في انتظار أنْ يَصنَع نجّارُ العرباتِ عَربةً جميلةً يَتنَزّه فيها الأطفالُ، وعربةً صغيرةً لِنقل التُّراب وأَوعِية الزُّهور والرَّمل وكلِّ ما يَرغَبان في وَضعِه بِحَديقتِهما. وكان بول قَد تعلَّم أنْ يَشُدّ وَثاق الحمار وأنْ يَحُلَّه وأنْ يُنظِّفه بِالفُرشاة وأنْ يُمشّط له شَعره وأنْ يُهيِّئ لَه فِراشه مِنَ التِّبنِ وأنْ يُقدِّم إليه مَأكلَه، ومَشربَه.

كانت صوفي تُساعدُه، وتنجحُ في إنجاز عملِها مثلَها مثل بول تقريباً.

كانت السيِّدة دو رِيان قد اشترتْ لهما بَردعةً وسَرجاً جميلاً حتّى يُساعداهما على رُكوب الحمار. وفي بِداياتِ الأمر، كانت المُربِّيةُ تقتفي أثَرَهما؛ ولكنْ عندما تأكّد أنّ الحمارَ كان وديعاً كالحَمَل، أَذِنت لهما السيِّدة دو رِيان في الذّهاب بمُفردهما، شَريطة ألاّ يخرُجا مِنَ البُستان.

وذات يومٍ، كانت صوفي تركب الحمار، وكان بول يَحثُّه على التّقدّم فيُوجِّه إليه ضرباتٍ قويّةً بعودٍ جلبَه معه. فقالت له صوفي:

- لا تَضرِبه، إنّكَ تُؤلِمُه.

بول: ولكنْ، عندما لا أضربُه، لا يَتقدّمُ؛ ثمّ إنّ العودَ الّذي عندي رقيقٌ لِلغاية إلى درجة أنّه لا يُمكِنُ أنْ يُسبِّب له ألماً كبيراً.

صوفي: لديَّ فكرةٌ! لو أخِزُه بمِنخَسٍ بَدلَ القيام بضَربه؟

بول: هذه فكرةٌ غريبة! أوّلاً ليس لديكِ مِنخَسٌ؛ ثمّ إنّ جِلد الحمار غَليظٌ لنْ يَشعُر مَعهُ بِوَخز المِنخَس.

صوفي: سواءٌ ذلك؛ لنُحاولْ على الدّوام؛ لكنّ من الأفضلِ أن لا يُحدِثُ له المِنخَسُ ألماً.

بول: ولكنْ ليس عندي مِنخَسٌ أُعطيك إيّاه.

صوفي: سنصنَعُ واحداً بواسطةِ دبّوسٍ كبيرٍ نَدقُّه في حِذائي؛ سيكونُ رأسُه مَغروزاً داخِلَ الحِذاء، وسيكونُ سِنانُه خارجاً.

بول: عجباً، ما أعمق مخيّلتك! هل عندكِ دَبّوس؟

صوفي: لا، لكنْ يُمكنُنا العودةُ إلى المنزلِ؛ سأطلُبُ دبابيسَ مِنَ المَطبخِ؛ يوجدُ مِنها الكثير دائماً.

ركِب بول وهو مُردَفٌ على الحمار، ووصل الطِّفلانِ على وجه السّرعة أمام المَطبخ. وأعطاهُما الطبّاخُ دبّوسيْن، وهو يظُنُّ أنّ صوفي كانت بحاجة إليْهما لِتُخفِيَ ثُقباً في فُستانها. لمْ تَشأْ صوفي أنْ تُنظِّم مِنخَسها أمام المنزل، لأنّها كانت تشعُر مليّاً أنّها بصدد ارتكاب حماقةٍ، وكانت خائفةً مِنْ أُمِّها أنْ تُوبِّخها.

قالت: مِنَ الأفضل ترتيب الأمر في الغيْضةِ؛ سنَجلِس على العُشب، وسيأكُل الحمار بينما نعملُ نحن؛ سنظهر في مَظهَر مُسافِريْن يَستَريحان.

ولمّا وصلت صوفي وبول إلى الغَيْضة، نَزلا؛ وشرع الحمارُ، فرِحاً بحرّيته، في أكلِ العُشب على حافّة الطُّرُق. جلست صوفي وبول على الأرض وشرعا في شُغلِهما. اِختَرق الدبّوسُ الأوّلُ الحِذاء مليّاً، ولكنّه انثنى كثيراً حتّى أنّه لمْ يعُد صالحاً للاستعمال. كان هناك لِحُسن الحظِّ دبّوسٌ آخرُ، وَلَج بِسهولةٍ في الحِذاء الّذي سَبَق خَرقُه؛ انتعلتْه صوفي، وربَطتْه. أمسك بول الحمارَ، وساعد صوفي

على الرّكوب فوقه، وها هي ذي تُسدِّدُ ضرباتٍ كَعبٍ لِلحمار وتَخِزه بواسطة المِنخَس. اِنطلق الحمارُ وهو يَعدو. وصوفي مفتونة بذلكَ، كانت تخِزه أكثرَ فأكثرَ؛ أخذ الحمارُ يركُض، وسُرعان ما بدأت صوفي تَخافُ؛ تَشبَّثت بِاللِّجام. وفي خِضمٍّ فَزعِها ضَغطَت بِكَعبها على الحمار؛ وكُلّما ضَغطَت، زاد وَخزُها؛ وجعل الحمارُ يَرمَحُ، ويقفِزُ، ورَمى بصوفي على بُعد عشر خُطواتٍ مِنه. هُرِع بول، وقد بقِي إلى الوراء، وهو فزِعٌ فساعَد صوفي على النُّهوض؛ لقد كانت يداها وأنفُها مَخدوشيْن.

قالت لبول: ماذا ستقولُ أُمّي؟ ماذا سنقول لها نحن عندما تسألُنا كيف أَمكَن أنْ أَسقُط؟

بول: سنُخبِرها بالحقيقة.

صوفي: أوه! يا بول! ليس كُلَّ الحقيقةِ، ليس كُلَّ الحقيقةِ؛ لا تَتحدَّثْ عن المِنخَس.

بول: ولكنْ ماذا تُريدينَني أنْ أقولَ؟

صوفي: قُلْ إنّ الحمار رَمَحَ وأنّني سقطتُ أرضاً.

بول: ولكنّ الحمار لطيفٌ جدّاً، ما كان يَرمَحُ أبداً لولا دبّوسكِ اللّعين.

صوفي: إنْ تكلّمتَ عن الدبّوس، فستُوبِّخُنا أُمّي، وتُصادِرُ مِنّا الحمار.





بول: أنا، أعتقِد أنّ مِنَ الأفضل دائماً قولَ الحقيقةِ؛ في كلّ مرَّةٍ أردتِ فيها إخفاء شيءٍ ما عن خالتي، كانت تعلَم به رغم ذلكَ، وكنتِ عُرضةً لعقابٍ أكثر قسوةً ممّا كان يمكِنُ أنْ يُصيبَكِ لو قُلتِ الحقيقة.

صوفي: ولكنْ لماذا تُريد أنْ أتكلَّم عن الدبّوسِ؟ لستُ مُضطرَّةً إلى أنْ أكذِبَ مِنْ أجل ذلك. سأَقولُ الحقيقةَ، أنَّ الحمار رَمَحَ وأنّني وقعتُ أرضاً.

بول: اِفعَلي كما تَشائين، ولكنِّي أَعتَقدُ أنّكِ مُخطئةٌ.

صوفي: ولكنْ أنتَ، يا بول، لا تقُلْ شيئاً؛ لا تتكلَّم عن الدبّوس.

بول: اِطمئنِّي؛ تعلَمين أنّني لا أُحبُّ أنْ أعرِّضَكِ لِلتَّوبيخ.

بَحثَ بول وصوفي عن الحمار، لقد كانا يظُنّانِ أنّه قريبٌ مِنْ هناكَ؛ لكن لم يعثُرا له على أثَر. فقال بول: «سيكونُ دون شكٍّ قد عاد إلى المنزل». أَخذت صوفي وبول مرَّة ثانيةً الطّريقَ نَحوَ المنزلِ مِثلَ الحمار، وكانا في غَيْضةٍ صغيرةٍ تقع قريباً جدّاً مِنَ القصر عندما سمِعا نداءً وشاهَدا أُمّيْهما تُهرَعان ناحيتَهما.

ماذا حدَث لكُما يا طِفليَّ؟ هل أصابكُما مَكروهٌ؟ لقد رأَينا حماركما يَعود مُسرِعاً وقد تَقطَّع سَيْرُ حِزامِه؛ كان في هيئةِ المُرتعِب، الفَزِع؛ لقد لَقِينا عَنتاً في الإمساكِ به. لقد خَشِينا عليكما أنْ تكونا

قد تعرّضتُما إلى حادِث.

صوفي: لا، يا أمِّي، لا شيء البتّةَ؛ أنا سقطتُ فحسبُ.

السيِّدة دو رِيان: سقطتِ؟ كيف؟ بأيِّ سبب؟



صوفي: كنتُ أركبُ الحمار ولم أعرِف لماذا أخذ يقفِزُ ويَرمَحُ؛ وقعتُ على الرَّمل وأُصبتُ بِخُدوشٍ قليلةٍ في أنفي ويديَّ: ولكنَّ ذلكَ لا يُعدُّ شيئاً.

السيِّدة دوبير: لماذا رَمَح الحمارُ إذاً، يا بول؟ كنتُ أعتقِدُ أنّه لطيفٌ لِلغاية!

بول، مُضطرِباً: صوفي هي مَن كانت فَوقَه، يا أُمّي؛ لقد رَمَح معَها هي.

السيِّدة دوبير: حَسناً جدّاً، أنا أفهَمُ ذلك. ولكنْ ما الّذي جعلَه يَرمَح؟

صوفي: أوه! يا خالتي، ذلكَ لأنّه كان يرغبُ في أنْ يَرمَح.

السيِّدة دوبير: أعلم أنّ ذلكَ لمْ يقَع بسبب رغبته في أن يَبقى هادِئاً. ولكنّ الأمر غريبٌ على كلِّ حال.

عاد الجميعُ إلى المنزل وقد أَنهَت السيِّدةُ دوبير كلامَها؛ ذهبت صوفي إلى غُرفتِها لِتَغسِل وَجهَها ويديْها، وقد كانت مُلطَّخةً بالتُّرابِ، ولتُغيِّر فُستانَها، فقد كان وسِخاً ومُمزَّقاً. ولمّا انتَهت مِن ارتداء ثوبِها دخلَت السيِّدة دو رِيان؛ وتَفحَّصت الفُستانَ المُمزَّق.

وقالت: يَنبَغي أنْ تكوني سقطتِ بعنف، حتّى يَتمزّق فُستانُكِ ويَتّسِخ على الحالِ الّتي هو عليها.

قالت المُربِّيةُ: آه!

السيِّدة دو رِيان: ما بِكِ؟ هل أصابكِ مكروه؟

المُربِّيةُ: آه! الفِكرةُ الثّاقِبةُ! ها! ها! ها! هذا ابتكارٌ عظيم! أُنظُري، يا سيِّدتي!

وأَظهَرتْ لِلسيِّدة دو رِيان الدبّوسَ الكبيرَ الّذي كانت قد تَعرَّضت بِسببِه لِلوَخزِ، والّذي كانت صوفي قد نَسِيَت أنْ تَنتَزِعه

بَعدَ وُقوعِها.

السيِّدة دو رِيان: ما معنَى ذلكَ؟ كيف لهذا الدبّوس أنْ يوجَد في حذاء صوفي؟

المُربِّيةُ: إنّ الدّبوس لمْ يأتِ بِمُفرده بِكلِّ تأكيدٍ، لأنَّ الجِلد غليظٌ جدّاً، فليسَ يَسهُل خَرقُه.

السيِّدة دو رِيان: تكلَّمي إذاً، يا صوفي؛ فَسِّري لنا كيف يوجد هذا الدبّوسُ هنا.

صوفي، في اضطرابٍ شديدٍ: لا أدري، يا أُمّي، لا أدري إطلاقاً.

السيِّدة دو رِيان: كيف! لا تَدرين؟ خَرقتِ حذاءكِ بواسطة الدبّوس دون أنْ تَلحظي ذلكَ؟

صوفي: نعم، يا أُمّي! أنا لمْ أرَ شيئاً.

المُربِّيةُ: آه! انظُري، يا آنسة صوفي، هذا ليس صحيحاً. أنا الّتي أَلبَستُكِ حذاءكِ، وأعلَمُ أنّه لم يكُن ثَمّةَ دبّوس. تُريدين أنْ تُقنِعي أمَّكِ بأنّني مُتهاوِنةٌ في القِيامِ بِشُؤونِكِ! ليسَت هذه حقيقةَ هذا الأمرِ، يا آنسة.

لمْ تُحر صوفي جَواباً؛ اِشتدّ خجلُها وازدادت احمِراراً واضطراباً. ووجَّهتْ إليها السيِّدة دو رِيان الأمرَ بالكلام.

إنْ لمْ تَعتَرفي بالحقيقة، يا آنسة، فإنِّي سأذهبُ في طلبِها مِنْ

بول، الّذي لا يكذِبُ أبداً.

اِنفَجرت صوفي بالبُكاء، ولكنَّها أَصرّتْ على أنْ لا تَعترِف بشَيء. ذهبت السيِّدة دو رِيان إلى منزل أختِها السيِّدة دوبير؛ فالتقَت هناكَ بِبول، الّذي سألته عمّا كان يَعنيه وجود الدبّوسِ في حذاء صوفي. أجابَ بول، وقد حسِب خالتَه غاضبةً جدّاً وظنّ أنّ صوفي كانت قد أقرّتْ لها بالحقيقة:

- كان ذلكَ مِنْ أجل أنْ نَصنَع مِنخَساً، يا خالتي.

السيِّدة دو رِيان: وفيمَ ستَستَعمِلانه؟

بول: في جَعل الحمار يَركُض.

السيِّدة دو رِيان: آه! أنا أفهمُ لماذا رَمَحَ الحمارُ، ورمى بصوفي أرضاً. كان المِنخَس يَخِزُ الحيوانَ المِسكينَ، الّذي سعَى إلى التخلُّص منه على طريقتِه.

خرجت السيِّدةُ دو رِيان وعادت لِمُلاقاةِ صوفي.

وخاطبتها قائلةً: أنا أعلَمُ بكلِّ شيءٍ، يا آنسة. أنتِ كاذِبةٌ صغيرةٌ. لو كنتِ أخبرتِني بالحقيقة، لكنتُ أنّبتُكِ ببعض التّأنيبِ، وما كنتُ لأُعاقبَكِ؛ والآنَ ستُمنَعين طيلةَ شهرٍ مِن ركوبِ حمارٍ، حتّى تَعْلمي عاقبةَ الكذبِ مثلَما سَبَق أن فَعلتِ.

تَركت السيِّدةُ دو رِيان صوفي باكِيةً. وعندما رآها بول ثانيةً، لمْ يتمالكْ عن أنْ يقول لها:

- كنتُ قد حذّرتُكِ مِنْ ذلكَ، يا صوفي! لو كنتِ اعترفتِ بالحقيقةِ، لكُنّا احتفظنا بحمارِنا، ولَمَا كنتِ تشعُرين بهذا الحُزن الّذي أنتِ عليه.

ووَفتِ السيِّدةُ دو رِيان بِوَعيدها فَلم تَسمَح لها بِرُكوب الحمار على الرَّغم مِنْ توسُّلاتِ صوفي.

الفصل العشرون

العَربَةُ الصَّغيرةُ

ذات يومٍ قالت صوفي لبول، وقد رأت أنّ أُمَّها لم تكُنْ تَسمَح لها بِركوب الحمار:

- ما دُمنا لا نستَطيعُ أنْ نركَب حمارنا، يا بول، فلنُسرِجه إلى عربتِنا الصّغيرة؛ سيَحملُ كلُّ واحدٍ منّا التّرابَ حَسبَ دَورِه.

بول: أنا لا أطلُب أكثَر مِنْ ذلكَ؛ ولكنْ هل ستَأذَن لنا خالتي بِذلك؟

صوفي: اِذهَبْ واطلُبْ منها ذلك. أنا لا أَجرُؤ على ذلك.

جَرى بول نَحوَ خالته وطلَب مِنها الإذنَ بإسراج الحمار.

واستَجابت السيّدة دو رِيان لِطلَبه شَريطةَ أنْ تذهَب المُربِّية في صُحبتِهما. ولمّا أخبر بول صوفي بذلكَ، تذمَّرت.

قالت: مِنَ المُزعج أنْ تكون مُربِّيتي في صُحبتِنا؛ هي تخافُ على الدّوام مِنْ كلِّ شيء؛ إنّها لَن تَسمَح لنا بِقيادَة العربة بسرعة.

بول: أُوه! ولكنْ يَجب علينا أنْ لا نَقود مُسرِعين، أنتِ تعلَمين أنَّ خالتي تَنهَى عن ذلك.

لمْ تَرُدّ صوفي، وقَطَّبت جبينهَا بينما كان بول يَجري لِلبحث عن المُربِّية وإسراج الحمار. وبعد مُضيِّ نِصف ساعةٍ، كان الحمار أمامَ

الباب يجُرّ وراءَهُ العربة.

ركِبتْ صوفي العربةَ وهي ما تَزال مُقطِّبةً؛ وكانت مُتجهِّمةً طوال النُّزهة، رَغم مَجهوداتِ بول المِسكين لِجعلِها مَرِحةً. وفي الأخير قال لها:

- آه! إنّكِ تُزعِجينَني بِملامِحِك الكئيبة! سأعود إلى المنزلِ: إنّه لَمِنَ المُزعِجِ أنْ أتكلَّم بمُفردي، أنْ ألعب بمُفردي، أنْ أرى وَجهَكِ العَبوسَ.

قاد بول الحِمارَ في اتِّجاه المنزل. وكانت صوفي ما تزال على تَجهُّمها. وعندما وصلا، نزلت، وعلِقت قَدمُها بالمَدرَج فسقَطت. قفز بول الطيّبُ إلى الأرض وساعدها على النّهوض؛ كانت لمْ تُصَب بِأذىً، غير أنّ طيبة بول أثّرت في أحاسيسِها فأَجهَشت بالبُكاء.

قال لها بول وهو يُقبِّلُها: هل أصابكِ مَكروهٌ، يا صوفي المسكينة؟ اعتمِدي على كتِفي؛ لا تخافي، سأَسنُدكِ جيِّداً.

فأجابته صوفي قائلةً وهي تَنشُجُ باكِيةً: لا، يا عزيزي بول، لمْ يُصبني أيُّ مَكروهٍ؛ أنا أبكي مِنَ النّدم؛ أنا أبكي لأنّني كنتُ شرِّيرةً معكَ، أنتَ الّذي تكون طيِّباً لِلغاية في سلوككَ معي على الدّوام.

بول: لا يجِب عليكِ البكاءُ مِنْ أجل ذلكَ، يا صوفي المِسكينة.

لا فضل لي في أنْ أكونَ طيّباً في سلوكي معكِ، لأنّي أُحبُّكِ وعندما أُحسِنُ إليكِ فإنّما أُحسنُ إلى نَفسي.

اِرتمت صوفي على رَقَبة بول وأَخذت تُقبِّله وهي تَبكي أكثر فأكثر. ولم يعُد بول يدري كيف يُواسيها، وأخيراً خاطَبها قائلاً:

- اِسمعي، يا صوفي، إنْ أنتِ تماديْتِ في البكاء، فسأبكي أنا أيضاً، فأنا يُؤلمُني أنْ أراكِ حزينةً.

مَسحتْ صوفي عينيْها وَوعَدته، باكيةً، أنْ لا تبكيَ أبداً.

وخاطبته قائلةً: أوه! يا بول! دَعني أَبكي؛ هذا يبعثُ فيَّ الرّاحةَ؛ أشعُر أنّني أفضلُ.

ولكنّها، ما إنْ شاهدت عينَي بول وقد تبلّلتا بدورهما بالدّموعِ، حتّى جفّفت عينيْها، واستعادت وجهها الضّحوكَ، وصعِدا معاً إلى غُرفتهما، حيثُ أخذا في اللّعب حتّى حان وقتُ العَشاء.

وفي الغد، اِقترحتْ صوفي جولةً جديدةً في العربة الّتي يجرُّها الحمار. أَخبرَتها المُربّية أنّ عليها أنْ تغسِل الثّيابَ وأنّها لا تستطيع الذّهابَ للنّزهة. أمّا أُمّها وخالتُها فكانتا مُضطرّتيْن إلى الذّهاب في زيارةٍ بعيدةٍ عن سُكناهما، عند السيِّدة فلورفيل.

فقالت صوفي في نَبرةٍ آسِفةٍ: ماذا سنفعلُ؟

فأجابتها السيِّدة دو رِيان: لو كنتُ على يقينٍ بأنّكما مُتعقِّلان، لكنتُ سمحتُ لكما بالذّهاب بمُفردكما؛ لديكِ دائماً يا صوفي

أفكارٌ غريبةٌ كلّ الغرابة، وهو ما يَجعلُني مُتوجِّسةً مِنْ وقوع حادثٍ بِسبَب واحدةٍ مِنْ تِلكَ الغَرائبِ.

صوفي: أوه لا! أُمّاه، اِطمئنّي! لن تكون لَديَّ أفكارٌ غريبةٌ، أُؤكّدُ لكِ ذلك. اِسمَحي لنا بالذّهابِ بمُفردنا نَحنُ الاثنيْن: إنّ الحمار لطيفٌ لِلغاية.

السيِّدة دو رِيان: الحمارُ لطيفٌ عندما لا نُضايقُه؛ ولكنْ، إنْ أنتِ شَرعتِ في وَخزِه مِثلَما فَعلتِ في ذلكَ اليومِ، فسيَقلِبُ العَربةَ رأساً على عَقِب.

بول: أوه! يا خالتي، لن تُعيد صوفي الكرَّة... ولا أنا أيضاً؛ لأنّي كنتُ أستحقُّ أنْ أُوبَّخَ مثلها تماماً، بِما أنّي ساعدتُها على خَرقِ حِذائها بواسطةِ الدبّوس.

السيِّدة دو رِيان: اُنظرا! أَودُّ السّماحَ لكُما أنْ تذهبا بِمُفردكُما، ولكنْ لا تخرُجا مِنَ الحديقة؛ لا تذهبا إلى الطّريقِ الرّئيسيّة، ولا تقودا العربةَ بسرعةٍ كبيرة.

فصاح الطّفلان: شُكراً يا أمِّي، شُكراً يا خالتي؛ وركضا نحو الإسطبل ليُسرِجا حمارَهما.

ولّما صار جاهِزاً، شاهدا وُصول طفليْ البُستانيِّ اللّذيْن كانا عائديْن مِنَ المدرسة.

فقال أكبرُهما، وكان يُسمَّى أُندريه: هل أنتُما ذاهبان في جولةٍ،

يا سيّدي؟

بول: نعم؛ أَتريدُ المَجيءَ معنا؟

أُندريه: لا أَستَطيع أَنْ أَترُكَ أخي وحيداً، يا سيّدي!

صوفي: حسناً! لِتَصطَحبْ أخاكَ مَعك.

أُندريه: أنا أرغبُ في ذلكَ كثيراً، يا آنسة. شُكراً جزيلاً.

صوفي: لنرَ مَنْ سيَجلسُ على المَقعدِ لِيقودَ العربةَ.

بول: إنْ شئتِ أنْ تَبدئي أنتِ، فهاكِ السّوطَ.

صوفي: لا، أفضّل أنْ أقود لاحِقاً، حينما يَتعبُ الحمارُ قليلاً ويَصيرُ أقلَّ نشاطاً.

ركِبَ الأطفالُ الأربعةُ جميعُهم العربةَ؛ وتجوّلوا طوال ساعتيْن، تارةً في أناةٍ، وطوراً في عَدوٍ؛ وقادوا العربة، كلُّ واحد مِنهُم حَسب دَورِه، إلاّ أنّ الحمار قد بدأ يعتَريه الجَهدُ؛ فلمْ يعُد يُحِسّ كثيراً بِوَقع السّوط الصّغيرِ الّذي كان الأطفالُ الصِّغارُ يضرِبونه به، إلى درجة أنّه كان يَخفِضُ سُرعته أكثر فأكثر، بالرّغم مِنْ ضربات السّوط وصياح صوفي الّتي كانت في القيادة.

أُندريه: آه! يا آنسةُ، إنْ كنتِ ترغبين في حَمله على السّيْر، فسأمدّكِ بغُصنٍ منْ الشّوك؛ وما إن تَضربينه به حتّى يبدأ يَسير.

صوفي: هذه فكرةٌ جيِّدةٌ؛ سنحمِلُه على أنْ يَسير، هذا الحمارُ الكسولُ.



تَوقّفت؛ نَزلَ أُندريه وذهب يَكسِرُ غُصناً شوكيّاً سميكاً من أشجار الشّوك الّتي كانت على قارِعة الطّريق.

وخاطبها بول قائلاً: حذارِ، يا صوفي؛ تَعلمين أنّ خالتي نهَت عن وَخز الحمار.



صوفي: أتظُنُّ أنّ الشّوكَ سيخِزُه مثلما وَخزَه دبُّوسُ ذلك اليومِ؟ لن يَشعُر به البتّة.

بول: إذن لماذا تركتِ أندريه يَكسِر هذا الغصن الشوكيَّ؟

صوفي: لأنّه أكبر حجماً مِنَ سوطِنا.

وجَّهتْ صوفي ضَربةً قويّةً إلى ظَهرِ الحمار، الّذي أخذ يعدو. صارت صوفي مُنبهِرة بنجاحها في حَمْلِ الحمار على السَّير مُسرِعاً، ووَجَّهت إليه ضَربةً ثانيةً، ثمّ أخرى ثالثةً؛ وصار الحمار يَعدو أَسرعَ فأَسرع. وكانت صوفي تُغرِقُ في الضَّحكِ، ومعها البُستانيّان الصّغيران. أمّا بول فلم يكُنْ يَضحكُ؛ كان قلِقاً بعض الشّيء، وكان يَخشى أنْ يَقع خَطْبٌ ما فتَتعرّض صوفي للتّوبيخِ والعِقاب. أشرَفوا على مُنحدَرٍ طويلٍ ووَعْر. ضاعفت صوفي الضّرباتِ؛ فَعِيلَ صبرُ الحمار وراح يَعدو بسرعة. أرادت صوفي إيقافَه، ولكنْ، هَيهاتَ، لقد فات الأوانُ؛ كان الحمارُ قد جَمَحَ، وكان يركُض على قدر ما تُسعفه به أَرجُلُه. وكان الأطفالُ يَصيحون جميعاً في وقتٍ واحدٍ، ممّا يُفزِع الحمارَ ويحمِلُه على الرّكض أسرعَ فأسرعَ! وأخيراً اجتاز مرتفعاً مِنَ الأرض، فانقلَبت العربةُ؛ وظلّ الأطفالُ على الأرض، وواصل الحمارُ جَرّ العَربة المُنقلِبةِ حتّى صارت حُطاماً.

كانت العَربةُ مُنخفِضةً كثيراً وهو ما جَعلَ الأطفالَ لا يتَعرّضون للإصابة، لكنَّهم خُدشوا جميعاً في وُجوهِهم وأيْديهم. نَهضوا بِأسًى؛ وعاد البُستانيّان الصَّغيران إلى الضَّيعةِ؛ ورَجعَت صوفي وبول إلى المنزل. كانت صوفي خَجِلةً وقلِقةً؛ وكان بول حزيناً. فبعد أنْ سارا بَعضَ الوقت دون أنْ يقولا شيئاً، قالت صوفي لِبول:

- أوه! يا بول، إنّي خائفةٌ مِنْ أُمّي! ماذا عَساها أنْ تقول لي؟

بول، في حُزن: عندما تَناولتِ هذا الشّوكَ، كنتُ على يقين أنّكِ ستُصيبين ذلكَ الحمار المِسكينَ بِمكروهٍ؛ كان يَجدُر بِي أنْ أُخبِركِ بذلكَ بطريقة أخرى، لعلّكِ كنتِ ستُنصِتين إليّ.

صوفي: لا، يا بول، ما كان لي أنْ أُنصِت إليكَ، لأنّني كنتُ أظنُّ أنّ الشّوكَ لا يستطيعُ أنْ يَخِز عَبرَ وَبَرِ الحمارِ الكثيف. ولكنْ ماذا ستقول أمّي؟

بول: وا أسفاه! يا صوفي، لِمَ تعصين تعاليمَ أمّكِ على الدّوام؟ لو كنتِ تُنصتين إلى خالتي، لكنتِ أصبحتِ أقلَّ عُرضةً لِلعقاب أو التّوبيخ.

صوفي: سأعملُ على أنْ أكون أكثر طاعةً؛ أؤكّد لكَ أنّي سأعملُ على ذلك. ذلكَ أنّه مِنَ المُزعِج كثيراً أنْ تكونَ مُطيعاً.

بول: وإنّه لَمِنَ المُزعِج أكثر أنْ تُعاقَبي. ثُمّ إنّي لاحظتُ أنّ الأشياءَ الّتي نُمنَع عنها خطيرةٌ؛ فعندما نَقترِفُها، يُصيبُنا دائماً بعضُ الأذى، وبعد ذلكَ نكون خائفيْن مِنْ ملاقاةِ خالتي وأُمّي.

صوفي: هذا صحيحٌ! آه! يا إلهي! ها هي أُمّي قادِمةٌ! هل تَسمَعُ صوتَ العربة؟ لنركُض بسرعةٍ، لِنعُدْ إلى المنزل قَبل أنْ ترانا.

رَغمَ جَريِهما المُتواصِلِ فإنّ العربةَ كانت تَسيرُ أسرعَ مِنهُما؛ كانت تَوقّفَت أمام دَرَج المَدخَل في الوقت الّذي وصلا فيه.

شاهدت السيِّدة دو رِيان والسيِّدة دوبير على الفَور خُدوشَ الوَجهِ واليديْن.

فصاحتْ بهما السيِّدة دو رِيان: عجباً! ها هي الحوادثُ مرّةً أخرى! ماذا أصابكُما؟

صوفي: أُمِّي، إنّه الحمار.

السيِّدة دو رِيان: كنتُ مُتيقِّنةً من قبلُ؛ ثمّ إنّني كنت قلقةً طوالَ زيارتي. ولكنْ، هل كان الحمار مَسعوراً؟ ماذا فعلَ حتّى تُخدَشا هكذا؟

صوفي: لقد قَلَب بِنا العربة، يا أمِّي، وأظنّ أنّ العربة قد تضرّرت قليلاً، لأنّه واصل عَدوَه بَعدما انقَلَبَت.

السيِّدة دوبير: أنا على يَقينٍ مِنْ أنّكِ قد اقتَرفتِ مرّةً أخرى بعضَ البِدَعِ الّتي قد تكونُ ضايقتْ هذا الحمارَ المِسكينَ!

طأطأتْ صوفي رأسها ولمْ تُجِب. واحمرَّ وجهُ بول خَجَلاً ولم يقُل شيئاً.

قالت السيِّدة دو رِيان: صوفي، أرى على ملامحِكِ أنّ خالتَكِ قالت صواباً. قولي الحقيقةَ، وأخبرينا بما حَدَث.

تَردَّدت صوفي لَحظاتٍ؛ غير أنّها قرّرت أنْ تَقول الحَقيقةَ، فرَوتْها كامِلةً لأمِّها وخالتِها.

قالت السيِّدة دو رِيان: طِفليَّ العزيزيْن، منذ أنْ حصلتُما على



هذا الحمار، حدثَت لكُما مصائبُ دون انقطاعٍ، وكانت لصوفي باستِمرارٍ أفكارٌ غريبةٌ. سأَقوم إذاً بِبيْعِ هذا الحَيوانِ الشقيِّ، وقد تسبّب في الكثير مِنْ هذه الحماقات.

صوفي وبول، معاً: أوه! أُمّاه! أوه! يا خالتي، أَتوسّل إليكِ، لا تَبيعيه، لا تَبيعيه. لنْ نُعيدَ الكَرَّةَ، أبداً، أبداً.

السيِّدة دو رِيان: لنْ تُعيدا اقتِرافَ الحماقةِ نفسِها؛ لكنّ صوفي ستَبتدِع حماقاتٍ أخرى، رُبّما أَكثر خُطورةً مِنَ سابقاتها.

صوفي: لا، يا أمّي، أُؤكِّد لكِ أنّي لَن أَقوم إلاّ بِما ستَسمَحين لي

بالقِيامَ به؛ سأكونُ مُطيعةً، أعِدُكِ بذلك.

السيِّدة دو رِيان: أودُّ جيِّداً أنْ أَنتظِر آيّاماً أُخرى؛ ولكنِّي أُحذِّرُكما أنّه عند أوّل بدعةٍ تبتدعُها صوفي لن يكون لكما حمارٌ مُطلَقاً.

شكر الطِّفلان السيِّدةَ دو رِيان، الّتي سأَلتهُما أين كان الحمار. فتذكَّرا حينَئذ أنّه كان قد استَمرَّ في الرَّكضِ، جارّاً وراءَه العربةَ المُنقلِبةَ.

اِستَدعت السيِّدة دو رِيان لامبير، ورَوَت له ما حَدَث، وأمرته أنْ يذهب وينظُر أين كان ذلك الحمارُ. وذهب لامبير مُسرعاً؛ ثمّ عاد بعد مُضِيِّ ساعةٍ: كان الطِّفلان يَنتَظرانِه.

صاحا به معاً: ماذا إذاً، يا لامبير؟

لامبير: إذاً! يا سيِّد بول ويا آنسة صوفي، لقد حدث مَكروهٌ لحمارِكما.

صوفي وبول، معاً: ماذا؟ أيَّ مَكروهٍ تَعني؟

لامبير: يَبدُو أنّ الخوفَ قد أهلَكَه، هذا الحيوانُ المِسكينُ؛ لقد استَمرَّ يَركُض على طول الطّريق، وكان الحاجزُ مَرفوعاً؛ فاجتازَه؛ وكانت عربةُ البريد قادِمةً في نَفس الوقت عندما كان يَعبُر الطَّريقَ الرّئيسيَّ؛ ولمْ يَستَطع الحوذيُّ أنْ يوقِف خُيوله في الوقت المُناسب، فقلَبت الحمارَ والعربةَ قَلباً عَنيفاً؛ لقد وطِئته الخَيلُ بِأرجُلها؛

فسقَطت؛ وكادت أنْ تَتسبّب في تَبعثُر البَريد. بَعدما تَمّ إنهاضُها وحَلُّ رِباطها، كان الحمار قد رُفِسَ، حتّى الموتِ؛ لقد كان جثّة هامدة كالصّخر.

هُرِعت الأُمّان وجميعُ الخَدَم عند سَماعِهم الصّيْحات الّتي أطلَقها الطِّفلان: روى لامبير مِنْ جديدٍ الكارِثةَ الّتي وقَعت لِلحمار المِسكينِ. قادت الأُمّان الصّغيرَيْن صوفي وبول كَيْ تَعملا على التَّخفيف عنهما؛ ولَكنَّهما لَقِيتا عَنَتاً، فقد كانا جَزِعَين. كانت صوفي تَلُوم نَفسَها على أنّها كانت السَّبَب في مَوت حِمارِها؛ وكان بول يَلومُ نَفسَه علَى أَنَّه تَركَ صوفي تَفعَل ما فَعلَته؛ وانقَضى اليومُ حزيناً لِلغايَة. لمدّةٍ طويلةٍ بَعدَ ذلكَ الحادِث، كانت صوفي تبكي عندما تُبصِر حماراً يُشبه حمارَها. لم تعُد تَرغَب في الحُصول على حمارٍ البتَّة، وكانَ ذلكَ أمراً جيِّداً، فأمُّها لمْ تَعُد تَرغَب في اشتِراء حمارٍ آخرَ لها.

الفصل الحادي والعشرون

السُلَحفاة

كانت صوفي تُحبُّ الحيواناتِ. كانت قد حصلتْ من قبلُ على دجاجةٍ وعلى سنجابٍ وقطٍّ وحمارٍ. وما كانتْ أُمُّها تُريدُ أَن تُعطيَها كلباً خوفاً مِن أَن يُصابَ بِداءِ الكَلَب، وهو ما يَحدُث كثيراً.

سألت صوفي أمَّها يوماً: ما الحَيوانُ الّذي يُمكِنُ أَن أَحصُلَ علَيه؟ أُريدُ واحِداً لا يُؤذيني، ولا يُمكِنُه الهُروبُ، ويُمكِنُ مُعالجتُه بِسُرعة.

السيِّدةُ دو ريان، ضاحِكةً: لا أَرى حيواناً قد يناسبك غَيرَ السُّلَحفاةِ.

صوفي: هَل هذا صحيحٌ! هذا لَطيفٌ جدّاً. سُلحفاةٌ، ثُمّ إنَّه لا خَوفَ مِن أَن تَهرُبَ.

السيِّدة دو ريان ضاحِكةً: وإذا أَرادَت أَن تَهرُب فسيَكونُ لَكِ دائِماً مِن الوَقتِ ما يَكفي لإدراكِها.

صوفي: اِشتَري لي سُلحفاةً يا أُمّاهُ، اِشتَري لي سُلحفاةً.

السيِّدة دو ريان: يا لَه مِن جُنونٍ! لَقد كُنتُ أَمزَحُ مَعكِ عِندَما حدَّثتُكِ عَنِ السُّلَحفاة. إنَّها حَيوانٌ مُنفِّرٌ وثَقيلٌ وقَبيحٌ ومُمِلٌّ؛ لا أَظنُّ أَنَّه يُمكِنُكِ أَن تُحبِّي حَيواناً أَحمَقَ مِثلَه.

صوفي: آه! أَرجوكِ يا أُمِّي، إنَّها ستُرفِّهُ عنِّي كثيراً. سأكونُ فِعلاً مُطيعةً حتَّى أَفوزَ بِها.

السيِّدة دو ريان: إذا كُنتِ تُريدين الحُصولَ على حَيوانٍ قَبيحٍ مِثلِها، فَسأَمنَحُكِ إيّاهُ، لَكنْ بِشَرطيْن: الأوّلُ، أنْ لا تَترُكيها تَموتُ مِنَ الجوع. والثّاني، أنَّه عِندَ أَوّلِ خَطأٍ تَرتَكِبينَه سأَحرمكِ مِنها.

صوفي: أَنا أَقبلُ شرطيكِ، يا أُمّاه، أَنا أَقبلُ شرطيكِ. مَتى أَحصُلُ على سُلَحفاتي؟

السيِّدة دو ريان: تَحصُلينَ علَيها بَعدَ غَد. سأُراسِلُ أَباكِ مُنذُ هذا الصَّباحِ لِيَشترِيَ لي سُلحفاةً مِنْ باريسَ حَيثُ هُو الآن. وسيُرسِلُها لَنا غداً مَساءً عَنْ طريق البريدِ وستَحصُلينَ عَليها باكِراً بَعدَ غَد.

صوفي: أَشكُركِ أَلفَ مَرّةٍ، يا أُمّي. بول سيَصلُ تَحديداً غَداً، وسيَبقى مَعنا خَمسةَ عَشَر يَوماً. سيَكونُ لَه الوَقتُ الكافي لِيتَلهَّى مَع السُّلَحفاةِ.

وفي الغَد، وَصلَ بول، ففَرِحَت صوفي كَثيراً. ولَمّا أَبلَغته أَنّها تَنتَظِرُ سُلَحفاةً سَخِر مِنها وسَأَلها عمّا ستَفعلُه بِحَيوانٍ قَبيحٍ مِثلِه.

سنُعطيهِ أَوراقَ الخَسِّ، وسنَصنَع لَه سَريراً مِن التِّبنِ، وسنَحمِلُه على العُشبِ؛ سنَستَمتِع كثيراً، أَعِدُكَ بِذلك.

وفي الغَد، وصلَت السُّلحفاة. كانَت كَبيرةً كأنّها طَبَقٌ،

وسَميكَةً كأنَّها أَغطِيةُ صُحونٍ في شَكلِ ناقوسٍ؛ كان لَونُها قَبيحاً ومتَّسِخاً؛ وكانَت قَد أَدخلَت رأسَها ورِجليْها.

صاحَ بول: يا إلهي! كَم هِي مُريعةٌ!

فَأجابَتهُ صوفي، وقَد وَخَزها كلامُه: أَمّا أَنا، فَأجِدُها جَميلَةً بَعضَ الشَّيء.

بول، بِنَبرَةٍ ساخِرة: خاصَّةً أنَّ لَها قَواماً جَميلاً، وابتِسامَةً رائِعَةً!

صوفي: دَعنا وشَأنَنا! أَنتَ تَسخَرُ مِن كُلِّ شَيءٍ.

بول، مُواصِلاً: إنَّ ما يُعجِبني فيها هو قَدُّها الجَميلُ، ومِشيَتُها الخَفيفةُ.



صوفي مُغضَبَةً: قُلتُ لَكَ يَكفِي. إنْ أَنتَ سَخِرتَ مِنها، سآخُذُ سُلحفاتي، وأَخرُجُ.

بول: خُذيها، خُذيها، مِن فَضلِكِ: لَن أَشتاقَ إلى وُجودِها.

لَشدَّما رَغِبت صوفي في الارتِماءِ على بول لتضربَه! لكنَّها تَذكَّرت الوَعدَ الّذي قَطعَتهُ، وتَهديدَ أمِّها، فاكتَفت بِأَنْ حَدجَتهُ بنَظرَةٍ حانِقَة. ثُمّ أَرادَت أَنْ تَحمِلَ السُّلَحفاةَ لِتأخُذها إلى العُشب؛ لَكنَّها كانَت ثَقيلةً جدّاً، فَتَركَتها تَسقُطُ مِن جَديد. أمّا بول الّذي اعتَذَر لِمُداعَبَتِهِ إيّاها، فَقَد هَبَّ لِمُساعَدتِها؛ لَقد اقتَرحَ عَليها فِكرَةَ وَضعِها في مُلاءَةٍ لِيَحمِلاها، وهُما يُمسِكانِ المُلاءَةَ كلٌّ مِن طَرفِها. وافقَت صوفي عَلى مُساعَدةِ بول، وقَد أَفزَعها سُقوطُ السُّلحفاةِ.

لَمّا أَحسَّت السُّلحفاةُ بِالعُشبِ الطريِّ، أَخرَجت ساقَيْها، ثمّ رأسَها، وأَخَذت تَأكُل العُشب. كان صوفي وبول يَنظُرانِ إليها بتَعَجُّب.

قالَت صوفي: أَنتَ تَرى جيِّداً أنَّ سُلحفاتي لَيست حَمقاءَ أَو مُمِلَّةً كَما تَعتقِد.

أَجاب بول. كَلاّ، هَذا صَحيحٌ، ولَكنْ هي قَبيحَةٌ حَقّاً.

قالَت صوفي: مِن هَذه النّاحِيةِ أَعتَرِفُ أنَّها قَبيحةٌ؛ إنّ لَها رأساً مُخيفاً.

أَضاف بول: وإنّ لَها قَدمَيْن مُرعِبتَيْن.

تابَع الأَطفالُ العِنايةَ بِالسُّلحفاةِ مُدّةَ عَشرةِ أيّام دون أَنْ يَطرَأَ طارِئٌ: كانَت السُّلحفاةُ تَنامُ على التِّبنِ، داخِلَ حُجرةٍ؛ تَأكلُ أَوراقَ الخَسِّ والعُشبِ، وتَبدو سَعيدةً.

وذاتَ يَومٍ خَطرَت لِصوفي فِكرَةٌ؛ كانَت تَعتَقِد أَنَّ الجَوَّ ساخِنٌ، وأنَّ السّلحفاةَ بِحاجةٍ إلى الاستِحمامِ، وأنّ حَمّاماً في البِركَةِ سيُرَفِّهُ عَنها. نادَت بول وطلَبت مِنهُ أَن يُساعِد السُّلحفاةَ عَلى الِاستِحمامِ.

بول: أَنْ تَستَحِمَّ؟ أَينَ ذلِك؟

صوفي: في بِركَةِ البُستان. الْماءُ هُناكَ بارِدٌ وصافٍ.

بول: لكنَّني أَخشَى أَنْ يُؤذِيَها ذلِك.

صوفي: على العَكسِ؛ إنَّ السّلاحِفَ تُحبُّ الاستِحمامَ كَثيراً؛ ستكونُ سَعيدةً جِدّاً.

بول: وكَيفَ علِمتِ أنّ السّلاحِفَ تُحِبّ السِّباحة؟ أَمّا أَنا، فأَظُنُّ أنَّها لا تُحِبّ الماء.

صوفي: أنا مُتأكِّدةٌ أنَّها تُحِبّهُ كَثيراً. أَلا يُحِبّ سَرطانُ البَحرِ الماءَ؟ أَلا يُحِبّ المَحّارُ الماءَ؟ فهَذه الكائِناتُ تُشبِهُ السُّلحفاةَ نَوعاً ما.

بول: فِعلاً، هَذا صَحيح. يُمكِنُنا أَنْ نُجرِّبَ ذَلك.

ثُمّ ذَهبا لِيأخُذا السُّلحفاةَ المِسكينَةَ، وقَد كانَت تَتدفَّأُ فَوقَ العُشبِ، تَحتَ أَشِعّةِ الشَّمس؛ فَحَملاها إلى البِركَةِ وأَلقيا بِها فيها. وما إن أَحسَّت السُّلحفاةُ بِالماءِ حتّى أَخرجَت رَأسَها ورِجلَيْها

بِسُرعةٍ، وَهيَ تُحاوِلُ أَنْ تنجُو؛ لَكنَّ قَدميْها كانَتا لَزِجتَيْن، وقَد لَمستا أَيدي بول وصوفي اللّذيْن تَركاها تَسقُطُ في قاعِ البِركَة.

هُرِعَ الأَطفالُ مَذعوريْن إلى مَنزِلِ البُستانيِّ يَطلُبونَ مِنهُ إنقاذَ السُّلحفاةِ المِسكينة. كان البُستانيُّ يَعلَمُ أَنّ الماءَ سيَقتُلُها، فَركَضَ نَحوَ البِركَةِ ولَم تَكُن عَميقَةً، وقَفَز فيها بَعدَ أَنْ نَزَع حِذاءَه، ورَفع سِرواله إلى رُكبَتيْه. كان يَرى السُّلحفاةَ وَهيَ تَتخبَّطُ في قاعِ البِركَةِ، فسَحبَها بِسرعةٍ، ثُمّ حَملَها بَعدَ ذَلكَ بِجانِبِ النّارِ حتّى تَجِفَّ. وكانَ الحَيوانُ المِسكينُ قَد أَدخَلَ رَأسَه وقَدميْه، وكَفَّ عَن الحَركَة. فلَمّا تَدفّأت جيِّداً، أَرادَ الطِّفلانِ حَملَها عَلى العُشبِ تَحتَ أَشعَّةِ الشّمسِ، فَخاطَبَهما البُستانِيُّ قائِلاً:

- سيِّدي، سيِّدتي، اِنتَظِرا، سأَحمِلُها عنكُما. ثُمّ أَضافَ: أَعتَقِدُ أَنّها لَن تَأكُلَ شَيئاً.

قالَت صوفي: هَل تَعتَقدُ أَنّ الحَمّام قَد أَضَرّ بِها؟

اَلْبُستانيّ: نَعم، بالتَّأكيدِ، لَقَد أَضَرَّ بِها، فَالماءُ غَيرُ مُلائِمٍ لِلسَّلاحِف.

بول: هَل تَعتَقِدُ أَنَّها ستَمرَضُ؟

البُستانِيّ: لاَ أَدري إن كانَت ستَمرَضُ؛ لَكنِّي أَعتَقِدُ أَنَّها ستَموتُ حقّاً.

صاحَت صوفي: يا إلهي!



بول، هامِساً: لا تَقلَقي؛ إنّه لا يَعرِفُ مَعنَى ما يَقول. إنّه يَظنُّ أَنّ السّلاحِفَ كَالقِططِ لاَ تُحبُّ الماءَ.

كانوا قَد عادوا عَلى العُشبِ؛ وَضَع البُستانيُّ السُّلحفاةَ بِلُطفٍ، ورَجَع إلى حَديقَتِه. أَمّا الطِّفلانِ فكانا يَنظُرانِ إليها مِن وَقتٍ إلى آخر، ولَكنَّها ظَلَّت هامِدةً لا يَبدو مِنها رَأسُها ولا قَدماها. كانت صوفي قَلِقةً، وكانَ بول يُهدِّئُ مِنْ رَوْعها.

قال: يَجِب أَن نَدعَها تَفعَلُ كَما تَشاءُ، غَداً ستَأكُلُ وتَتجوَّلُ.

عِندَ المَساءِ حَملاها عَلى سَريرِها المَصنوعِ مِنَ القَشِّ، ووَضعا لَها أَوراقاً مِنَ الخَسِّ الطّازَج. وعِندَما ذَهبا لِرُؤيَتها في الغَدِ، كانَت أَوراقُ الخَسِّ كامِلةً لأنَّ السّلحفاةَ لَم تَمَسْها.

قالَت صوفي: هذا غَريبٌ، إنّها تَأكُلُ عادَةً كلَّ شَيءٍ في اللَّيل.

أَجابَ بول: لِنَحمِلْها عَلى العُشبِ، قَد لاَ تُحبُّ أَوراقَ الخَسّ.

جَسَّ بول السّلحفاةَ بِحَذرٍ، وقَد كان قَلِقاً؛ لَكنّه لَم يَكُن لِيُظهِرَ قَلَقهُ لِصوفي، ثُمّ قال لَها:

- لِنَدعْها، ستُدفِئُها الشّمسُ، وتُحسِّنُ حالَها.

صوفي: هَل تَعتَقِدُ أنَّها مَريضَةٌ؟

بول: أَظُنُّ ذلك.

لَم يَكُن بول يُريدُ أَن يُضيفَ أنّه يَراها ميِّتةً مِثلَما بَدأَ يَعتَقِد. وخِلالَ يَوميْنِ ظَلَّ هُو وصوفي يَحمِلانِ السُّلحفاةَ عَلى العُشبِ؛

لَكنَّها لَمْ تَكُن تَتحرَّكُ، وكانا يَجِدانِها دائِماً مِثلَما تَركاها. حتّى أَوراقُ الخَسِّ الّتي كانا يَضعانِها لَها في المَساءِ كانا يَجِدانِها كامِلةً في الغَد. وفي نِهايَةِ المَطافِ، وبَينَما هُما ذاتَ يومٍ يَضعانِها عَلى العُشبِ، لاحَظا أَنّها كَريهةُ الرّائِحةِ.

قال بول: إنَّها ميّتةٌ، ورائِحتُها كَريهَة.

كانَ كِلاهُما بِجانِبِ السّلحفاةِ حَزيناً، لا يَدري ما يَفعَلُ بِها، عندما اقتَربَت مِنهُما السيِّدةُ دو ريان قائِلةً:

- ماذا تَفعَلان هُنا، يا وَلَديَّ؟ أَنتُما كَالصَّنَميْن بِجانِبِ هَذه السُّلحفاةِ.

ثُمَّ أَضافَت، وَهيَ تَنحَني لأخذِها: إنَّها جامِدةٌ مِثلَكما.

أَدرَكَت السيِّدةُ دو رِيان، وَهيَ تَتحسَّسُها، أَنّها كَريهَةُ الرّائِحةِ؛ فَصاحَت، وَهيَ تُلقي بِها عَلى الأَرض:

- إنَّها... ميّتةٌ، إنَّها قَد تَعفَّنَت.

بول: نَعم يا خالَتي، أَعتَقِدُ أنَّها قَد ماتَت.

السيِّدة دو ريان: مِمَّ قَد تكونُ ماتَت يا تُرى؟ لَيسَ هَذا بِسبَبِ الجوعِ، فأَنتُما تَضَعانِها كلَّ يَومٍ عَلى العُشب. مِنَ الغَريبِ أَنْ تَموتَ دونَ أَن نَعرِفَ سَببَ ذَلِك.

صوفي: أُمّي، أَظُنّ أَنّ الحَمّام هو الّذي قَتلَها.

السيِّدة دو ريان: حَمّامٌ؟ مَنْ فكَّرَ في إعطائِها حمّاماً؟

صوفي، شاعرةً بالخِزي: إنّها فِكرتي يا أُمّي؛ ظَننتُ أَنّ السَّلاحِفَ تُحبُّ الماءَ البارِدَ، فغَسلتُها في بِركَةِ الحَديقَةِ، ثمّ سقَطتْ في القاع، ولَم نَستطِع الإمساكَ بها. لَقَد أَمسَكها البُستانِيُّ، بَعدَ أَنْ بَقِيت مُدّةً طويلةً في الماءِ.

السيِّدة دو ريان: آه! إنّها إحدى أفكارِكِ. وفي النّهاية لَقَد عاقَبتِ نَفسَكِ بِنَفسِكِ، ولَيس عِندي ما أَقولُه لَكِ. تَذكَّري فقط أَنَّكِ لَن تَحصُلي مُستَقبَلاً على أيِّ حَيوانٍ لِتَربيتِهِ أَو لِمُداواتِه. فَأَنتِ وبول إمّا أَنْ تَقتُلاَ هَذه الحَيواناتِ، أَو تَترُكاها تَموتُ جَميعُها. ثمّ أَضافَت السيِّدة دو ريان:

- لا بُدَّ مِنَ التّخلُّصِ مِنْ هَذه السُّلحفاةِ، تَعالَ يا لامبير، لِتأخُذْ هَذا الحيوانَ الميِّت، ولتُلقِ بِهِ في بَعضِ الحُفَرِ.

هكذا انتَهت السّلحفاةُ المِسكينةُ؛ كانَت آخِرَ حَيوانٍ تَحصُلُ علَيه صوفي. فبَعدَ بِضعَةِ أيّامٍ، سأَلت أُمَّها إن كانَت تَستطيعُ الحُصولَ على واحدة أو اثنتين من تلك الأرانبِ اللّطيفَةِ الصَّغيرةِ الّتي تُرى في الضَّيعةِ، لَكنَّ السيِّدةَ دو رِيان رَفضَت ذلِك. كان يَجِبُ علَيها أنْ تَكونَ مُطيعَةً حقّاً، فقَد عاشَت صوفي وَحيدَةً مع بول الّذي كانَ يَأتي دائِماً لِيقضِيَ أيّاماً مَعَها.

الفصل الثاني والعشرون

الرَّحيلُ

سألت صوفي بول ذات يوم: لماذا تَتحدّثُ خالتي دوبير وأمِّي بِصوت مُنخفِض دائماً؟ إنَّ أمّي تَبكي و خالتي كذلكَ؛ هل تَعلَمُ لماذا؟

بول: لا، لا أَعلَمُ شيئاً؛ لَكنّني سمِعتُ ذات يوم أمّي وهي تُحدِّث خالتي قائلَة: «سيَكون مُفزِعاً أنْ نَترُك آباءنا وأصدقاءنا وبلدنا»، فأَجابت خالتي: «خاصّةً إذا كان هذا البلَد أمريكا».

صوفي: حقّاً! فماذا يَعني ذلكَ إذن؟

بول: أظُنّ أنّ ذلك يَعني أنّ أمّي وخالَتي تُريدان الذّهابَ إلى أَمريكا.

صوفي: لكنَّ هذا لن يَكون مُفزِعاً البتَّة، بل على العكس، سيَكون هذا مُسلِّياً. سنُشاهِد السَّلاحِف في أمريكا.

بول: وسنُشاهِد كذلكَ طيوراً رائِعةً مِنْ غِربانٍ حَمراءَ وبُرتقاليّةٍ وزرقاءَ وبَنفسجيّةٍ ووردِيَّةٍ لا كغِربانِنا القَبيحةِ السَّوداء.

صوفي: وسنُشاهِدُ طُيورَ الببَّغاءِ والطُّيورَ الطنّانةَ، فقد أَخبَرتني أُمّي أنّ في أمريكا مِنها الكثيرَ.

بول: وسنُشاهِدُ سكّانَ البلادِ الأصليِّينَ، سُوداً وصُفراً وحُمراً.

صوفي: لكنْ لِمَ نحن ذاهِبون إلى أمريكا؟ نحن بِخيرٍ هنا.

بول: حقّاً! أنا أَلقاكِ دائِماً ومنزِلُنا مُحاذٍ لمنزلكُم. أَفضلُ مِنْ كُلِّ هذا هو أَنْ نَبقَى معاً في أَمريكا. آه! إذن أُفضِّلُ حقّاً الذَّهابَ إلى أمريكا.

صوفي: اِنتَبِه، هذه أمّي تَتنزَّه مع خالتي وهُما لا زالَتا تَبكِيان؛ إنّه لَيُحزِنُني أنْ أراهُما تَبكِيان... ها هُما تجلِسان على المَقعد. لِنَذهب لِمُواساتِهما.

بول: لكنْ كيف لَنا بِمُواساتِهما؟

صوفي: لا أَعلمُ كيفَ. ولاَ بَأسَ مِنَ المُحاولةِ دائِماً.

جَرى الأولادُ نَحوَ أُمَّيْهِما.

سألت صوفي: أُمّي العَزيزةَ، لِماذا تَبكين؟

السيِّدة دو ريان: بِسبَب شَيءٍ يُحزِنُني، يا ابنَتي العَزيزةَ، ولا تَستَطيعين فَهمَه.

صوفي: بلَى، يا أُمّاه، أُدرِكُ جيِّداً أنّه يُحزِنُكِ أنْ تَذهَبي إلى أمريكا، لأنّكِ تَظنِّين أنّي سأَغضَب كثيراً لِذلِك. أوَّلاً، لمّا كان بول وخالتي سيأتِيانِ معَنا، فسنكونُ سُعداءَ جدّاً. ثمّ إنّني أُحبُّ أَمريكا كثيراً، إنَّها بلَدٌ جَميلٌ جدّاً.

نَظَرت السيِّدة دو ريان بَدءاً إلى أُختِها، السيّدة دوبير، نَظرةَ تَعجُّبٍ، ثمّ لمْ تَتمالَكْ نَفسَها عَنِ الابتِسامِ عِندَما تَحدَّثَت صوفي

عن أَمريكا، البلَدِ الّذي لاَ تَعرِفُه البتّة.

السيِّدة دو ريان: مَنْ أَخبَرَكِ أنّنا ذاهِبون إلى أَمريكا؟ ولِماذا تَظُنِّين أنَّ هذا هُو سببُ حُزنِنا؟

بول: آه! يا خالتي، هذا لأَنَّني سمِعتكُما تَتحدَّثان عنِ الذَّهابِ إلى أمريكا، وأَنتُما تَبكِيانِ؛ لكنْ أُؤكِّد لَكُما أنَّ صوفي علَى حقٍّ، وأَنَّنا سنكونُ سُعداءَ في أمريكا إنْ نَحنُ سَكنَّا معاً.

السيِّدة دو ريان: نعم ابنَيَّ العزيزيْن، لقد حَدَستُما حقّاً. علَينا فِعلاً الذّهابُ إلى أمريكا.

بول: ولِمَ إذن يا أمّي؟

السيّدة دوبير: لأنَّ أحدَ أصدقائِنا، السيّد فيشيني، الّذي كان يَعيشُ في أمريكا، مات لِلتوِّ، ولمّا لمْ يَكُن لَديهِ وَرثَةٌ وكان غنِيّاً جدّاً؛ فقد تَركَ لنا كلَّ ثروتِه. أبوكَ وأبو صوفي مُضطَرّانِ إلى الذّهاب إلى أمريكا لِلحُصول على هذه الثّروة؛ أنا وخالَتُكِ لا نُريدُ أنْ نَترُكَهما يَذهبان لِوَحدهما، مع أنّنا حَزينَتان علَى فِراق الأهلِ والأَحبَّةِ والأَرضِ.

صوفي: لكنَّ ذلكَ لن يَدوم طويلاً، أَليس كذَلك؟

السيّدة دو ريان: لا، فقَد يَدومُ ذلكَ سنَةً أو سنَتيْن.

صوفي: إذن لا يجبُ عليكِ أن تبكِي لذلك يا أمِّي، تذكّري دائماً أنَّ خالتي وبول سيكونانِ معناَ كلَّ هذا الوقت. ثمّ إنّ عمِّي

وأبي سيكونان فرحيْن جدّاً إذ لن يكونا لوحدهما.

عِندئِذٍ قَبّلَت السيِّدتان دو ريان ودوبير ابنَيْهما.

قالت السيِّدة دو ريان لأُختِها: إنَّهما فِعلاً علَى حقٍّ، هذان الطفلان! وسنكونُ معاً وسَتمُرُّ السّنتان حقّاً بِسرعَة.

ومُنذ ذلكَ اليومِ لمْ تَبكِيا أبداً.

عِندَئذٍ قالت صوفي لِبول: ألاَ تَرى أنّنا قد واسَيْناهما! لقد لاحَظتُ أنَّ الأَطفالَ يُواسونَ الكِبارَ بِسُرعةٍ أَكبَر.

فأجابَها بول قائِلاً: ذلكَ لأنَّهُم يُحبّونَهم.

بَعدَ بِضعةِ أيّامٍ ذَهب الطِّفلانِ مع أُمَّيهما في زيارةِ وَداعٍ لِصَديقتَيْهما، كاميليا ومادلين دو فلورفيل، اللّتين كانَتا شديدَتَيِ الدّهشةِ عندما علِمتا أنّ صوفي وبول سيُسافِران إلى أمريكا.

سأَلتهما كاميليا: كَم مِنَ الوقتِ ستبقَيان هُناك؟

صوفي: سَنَتيْن علَى ما أَعتقِدُ، إنّها مُدَّةٌ طويلَةٌ!

بول: عِندَما نَعودُ تكونُ صوفي قد بلَغت العاشِرةَ وأَكونُ أنا ابنَ ثَماني سَنواتٍ.

مادلين: وأنا سيَكونُ عُمري ثَماني سَنواتٍ أَيضاً، وعمر كاميليا تِسعَ سَنواتٍ!

صوفي: كَم ستكونينَ عَجوزاً، يا كاميليا! تِسعَ سَنواتٍ!

كاميليا: اجلِبوا لنا أَشياءَ جَميلةً مِنْ أمريكا، أَشياءَ عَجيبةً.

صوفي: هَل تُريدين أنْ أَجلِبَ لكِ سُلَحفاة؟

مادلين: يا لَلهَول! سُلَحفاة! إنَّها هديّة مُقرِفةٌ وسَخيفَةٌ.

لَم يَتمالَكْ عِندها بول عن الضَّحك.

فسَأَلته كاميليا: لِماذا تَضحَكُ يا بول؟

بول: لأَنَّه كانَت لِصوفي سُلحفاةٌ؛ ولمّا قُلتُ لَها نَفسَ ما قُلتِه حَرفيّاً غَضِبتْ مِنّي.

كاميليا: وماذا عنْ هذه السّلَحفاةِ؟

بول: لقد ماتَت بَعدَ أنْ أَعطيناها حمّاماً في البِركة.

كاميليا: مِسكينٌ هذا الحيوانُ! أَتأسَّفُ لِعَدم رُؤيتِه.

اِقتَرحت صوفي، الّتي لا تُحِبُّ أنْ نُحدِّثَها عنِ السُّلحفاةِ، الذَّهابَ لِقَطفِ الأزهارِ في الحُقولِ، أمّا كاميليا ففَضَّلَت أنْ يَذهَبوا لِجَني الفَراوِلةِ في الغابة. وافَقوا جَميعاً بِفَرحٍ، ووجَدوا الكَثيرَ مِنها، وكانوا يَأكلونَه كلّما وَجدوه. مَكثوا يَلعبون ساعتَيْن، وبَعدَها كان علَيهم أنْ يَتفرّقوا. وَعَدَ صوفي وبول بِأنْ يَجلِبا مِنْ أمريكا فَواكِهَ وأَزهاراً وطُيوراً طنّانَةً وطُيورَ ببّغاء. لقد وَعَدت صوفي حتّى بِجَلب مُتوحِّشٍ صغيرٍ إذا سمَحوا بِأنْ يَبيعوها واحِداً. وفي الأيّام المُوالِية واصلوا القِيامَ بِزياراتِ الوَداعِ، ثمّ شَرعوا في إعدادِ الحَقائِب. أمّا السيِّدان دو ريان والسيّد دوبير فكانا بِباريسَ يَنتظِران زَوجتَيْهما وطِفلَيْهما.



كان يَومُ الرَّحيلِ يَوماً حَزيناً. فقَد بَكى حتّى الصّغيران صوفي وبول، وهُما يُغادِران القَصرَ والخَدَمَ وأَهلَ القَرية.

كانا يُخمِّنانِ: قَد لا نَعودُ أبداً!

لقد كان لِجَميعِ هؤُلاءِ المَساكينِ الهَمُّ نَفسُهُ، وكان الحُزنُ يُخَيِّمُ علَيهِم جَميعاً.

رَكِبت الأمّان والطّفلان في عَربةٍ شُدَّت إلى أَربعةِ خُيولٍ مِنْ

خُيولِ البريدِ؛ وتَبِعتهُم الخادِماتُ والمُربِّياتُ في عَربةٍ تَجُرُّها ثلاثةُ خُيولٍ وكانَ علَى كلِّ مَقعَدٍ خادِمٌ.

وَصلوا إلى باريسَ لِلعَشاءِ، بَعد أنْ كانوا قد تَوقَّفوا ساعةً في الطَّريقِ لِلغَداء. كانَ علَيهِم ألاّ يَمكُثوا في باريسَ سِوى ثَمانِيةِ أيّامٍ، حتَّى يَشتَروا ما يَلزَمُهم لِلرِّحلَةِ ولِلمُدَّةِ الّتي قد يَقضُونَها هُناكَ.

اِستَمتَعَ الطِّفلانِ كثيراً خِلالَ هذه الأيّامِ الثّمانية. فقد ذَهبا معَ أُمِّيهِما لِلتَّجوُّلِ في غابَة «بولونيا» وفي حَديقة «التّويلري» وحَديقة النَّباتاتِ؛ وراحُوا يَقتَنون أَشياءَ مُتنوِّعةً مِنْ أَلبِسةٍ وقُبَّعاتٍ وأَحذِيةٍ وقُفّازاتٍ وكُتُبِ التّاريخِ ولُعبٍ ولَوازِمَ لِلرِّحلَةِ. كانت صوفي تَرغَبُ في كلِّ الحَيواناتِ المَعروضةِ لِلبَيع، حتّى أنّها كانت تَودُّ شِراءَ الزَّرافةِ الصّغيرةِ في حَديقةِ النَّباتاتِ. وكانَ بول يَرغَبُ في كلِّ الكُتُبِ وكلِّ اللَّوحاتِ. حَصَلَ كلٌّ واحدٍ مِنهُما علَى حَقيبَةِ سَفرٍ صغيرةٍ، فيها لَوازِمُ الاستِحمامِ وأدواتُها اليوميّةُ ولُعبُها مِنْ نَردٍ ووَرقٍ وعُصيَّةِ الرّامي وغَيرِها.

وأَخيراً جاءَ اليومُ المَوعودُ، يَومُ الرَّحيلِ نَحوَ ميناءِ لوهافر، حَيثُ سيَستقِلّون باخِرةً تَحمِلُهم إلى أمريكا. عِندَما بلَغوا لوهافر علِموا أنّ باخِرتَهم، «السّيبيل»، لن تَرحَلَ إلاّ بَعدَ ثَلاثَةِ أيّام. فانتَهزوا فُرصةَ الأيّام الثّلاثةِ لِلتّجوّل في المَدينةِ، الّتي كان صَخَبُها وضَجيجُ طُرقاتِها وأَحواضُها المُكتَظَّة بِالمَراكِبِ وأَرصِفتُها المُغطّاةُ

بِالسِّلَعِ مِنْ بَبّغاواتٍ وقِرَدَةٍ وكلِّ أَنواعِ الأشياءِ القادِمةِ مِنْ أمريكا يَسُرُّ الأطفالَ كثيراً. ولَو كانت السيِّدة دو ريان استَمعَت إلى صوفي لَكانَت اشتَرَت عَشرةَ قِردةٍ، ومِثلَها مِنَ البَبّغاواتِ وأجناسِها، وغَيرِ ذلكَ؛ لكنَّها رَفضَت كلَّ طلَباتِها رَغمَ توسُّلاتِ صوفي إليها.

مَرَّت هذه الأيّامُ الثّلاثةُ، مِثلَما قد مَرَّت الأيّامُ الثّمانِيةُ في باريسَ، ومِثلَما مَرّت السّنواتُ الأربعُ مِنْ عُمر صوفي والسّنواتُ السّتّ مِنْ عُمر بول، لَقد مرّت دونَ رَجعة. كانَت السيِّدتانِ دو ريان ودوبير تَبكِيانِ لِفراقِ فَرنسا بَلدِهِما العَزيزِ الجَميلِ. وكان السيِّدان دو ريان ودوبير يَسعَيان لِمُواساةِ زَوجتَيْهِما، وذَلكَ بِوَعدِهما بِأنّهما ستَعودان في أقربِ وَقتٍ مُمكِن. أمّا صوفي وبول فكانا مَفتونَيْن لا يُؤلِمُهما إلاّ أنْ يَريا أُمَّيْهِما تَبكِيان. دَخلاَ الباخِرةَ الّتي ستُقِلّهم بَعيداً جدّاً وَسطَ عَواصفِ البَحرِ وأَهوالِه. وبَعدَ ساعاتٍ استَقَرُّوا في غُرفِهِم الّتي كانَت عِبارةً عن حُجراتٍ صغيرةٍ، في كلِّ واحِدةٍ مِنها سَريران وحقائِبُهم وأَغراضُ الحَمّام الضّروريّة. كانت صوفي تَرقُدُ مع السيِّدة دو ريان، وبول مع السيِّدة دوبير، والأَبوان يَرقُدان معاً. كانوا جميعاً يَأكُلونَ إلى طاوِلةِ القُبطانِ، الّذي كان يُحبُّ صوفي كَثيراً؛ فَقد كانت تُذكِّرُهُ بِمَرغَريت الّتي بَقِيت في فَرنسا. كان القُبطانُ كثيراً ما يَلعَب مع بول وصوفي ويَشرَحُ لَهما

كلَّ ما يُدهِشُهما داخلَ السَّفينةِ عن طَريقَةِ سَيرِها علَى الماءِ، وعَن طَرِيقَةِ مُساعَدتِها في التَّقدُّمِ بفَتحِ الأَشرِعَةِ، وأَشياءَ أُخرى كثيرة.

كان بول يَقولُ دائِماً: سأُصبِحُ بَحّاراً عندما أَكبُرُ، وسأُبحِرُ مع القُبطان.

وكانت صوفي تُجيبُهُ: كلاَّ، أَبداً، لا أُريدُكَ أنْ تكون بَحّاراً؛ سوفَ تَبقَى مَعي علَى الدَّوام.

بول: ولِماذا لاَ تَصحَبينَني علَى قاربِ القُبطان؟

صوفي: لأَنَّني لا أُريدُ أنْ أُفارِقَ أُمّي، سأَبقَى دائِماً مَعها، وأَنتَ ستَبقَى دائِماً مَعي، أَسمِعتَ؟

بول: سَمعاً وطاعةً. بِما أنَّكِ تُريدين ذلكَ، فإنَّني سأَبقَى.

كانَت الرِّحلةُ طويلَةً، ودامَت أيّاماً عَديدةً. فإذا رغِبتُم أنْ تَعرِفوا ماذا أَصبحَت صوفي فاطلُبوا مِنْ أُمّهاتِكم أنْ يُقرِئنكم روايتي «الفَتَياتِ الصّغيراتِ الأنموذجيّات»، حَيثُ تَجِدونَ صوفي ثانيةً. وإذا أردتُم أنْ تَعرِفوا ماذا صارَ بول، فستَعرِفونَه عندَما تَقرؤُونَ روايتي «كتابَ العُطلِ» حَيثُ ستَجِدونَه هو أيضاً.

آلامُ صوفي

«آلام صوفي» واحدةٌ من روائع أدب الناشئة الذي كُتب باللغة الفرنسية. عبر فصول الرواية ترسُم لنا «الكونتيسة دو سيغور» صورةَ بطلتها الصغيرةِ «صوفي» تلك الطفلة الجسورة التي لا تنفكُّ تكتشف عالمَ الكهول فتعوزها الحيلةُ فتتعرّض غالباً للعقاب والتقريع. الروايةُ سبرٌ لعالم الطفولة البريء واكتشافٌ لنموذج الطفلِ التائق إلى التعرُّف على محيطِه ووصفٌ دقيقٌ لذلك العالم الخفيّ الذي يميّز شخصيةَ الطفل بردودِ أفعاله ومواقِفه وانفعالاتِه. الروايةُ أيضاً رحلةٌ ممتعةٌ إلى ذكريات الصّبا ببراءتها وصدقِها بآلامها الصغيرةِ وأحلامها الكبيرةِ بمغامراتها وانكساراتها وعفويتها المطلقة. هي سفرٌ عبر طفولة «صوفي».








9 789948 171416